مجلة جامعة الملك سعود، م٨، الآداب (١)، ص ص ٣ - ٣٥ (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

منزلة ابن العم عند العرب في ضوء الشعر (حتى آخر العصر الأموي)

محمد بن سليمان السديس

أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب،
جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر بتاريخ ١٤١٤/٩/١٠هـ؛ وقبل للنشر بتاريخ ١٤١٥/٦/٦هـ)

ملخص البحث. منزلة ابن العم، والعلاقة به، والتعامل معه، من القضايا الاجتماعية التي كانت قائمة في المجتمع العربي القديم ذي البنية القبلية.

وفي هذه المقالة رصدٌ لانعكاسات هذه القضايا في نماذج من الإبداع الفنِّي الشعري الذي ظهر إبَّان مُدَّةٍ تمتد مما قبل الإسلام حتى آخر العصر الأموي، وفيه تتبع للأفكار المتولدة عن جوانب تلك القضايا، وسعي للخروج من ذلك بما يكشف موقف العربي من ابن عمه، سواء من حيث التبعات التي يحملها تجاهه أو من حيث ما يتوقعه منه من واجبات.

وباستقراء المادة التي قام عليها العمل تجلت متانة الوشيجة بين بني العم، وصلابة الانتماء القبلي عامـة، وشدة تماسكه، حتى في الشعر الإسلامي في العصر الأموي. ومن زاوية أخرى، برزت معاناة شعراء كثيرين من معاداة بني عمهم لهم، فتكررت الشكاة من المواقف السلبية لبعض بني العم نحو بني عمهم، مما أوحى بأنها ظاهرة على قدر من الفُشُوِّ في المجتمع القبلي القديم.

وتوارت خلف العصبية لابن العمِّ عصبيةٌ للعشيرة/ القبيلة... إلخ بأسرها. ولكن تجلَّى أيضًا وجود نزعة، حتى لدى عرب ما قبل الإسلام، إلى ما يشبه (صلة الرحم)، وهي — لاشك — نزعة إنسانيةٌ عامةٌ تعهدها الإسلام بالرعاية ونمّاها.

وأخيرًا، اتضح، بإجراء موازنة استنتاجية بين المادة المُبْدَعَة قبل الإسلام والمبدعة بعده، غلبةُ عناصر الالتقاء على عناصر التباين بين النظرتين إلى غالبية المسائل المأتِّة إلى هذا الموضوع بصلة.

المقدمة

«ابن العم» وصف يتسع مدلوله متجاوزًا ما وضع له أصلاً من أنه ابن أخي الأب، ليشمل أي فرد من عشيرة قائله وربما قبيلته أو فصيلته، وإن لم يكن يَمتُّ إلى القائل بصلة قرابة غير الاشتراك معه في هذا الانتماء. وابن العم البعيد هذا هو مايقال له «ابن عمٍّ كلالةٌ[١]» و«ابن عمٍّ ظَهْرٌ.»[٢] أما ابن العم القريب، ابن أخي الأب، فتقول للتمييز بينه وبين الكلالة: «هو ابن عمي لحًّا،» أي لاصق النسب،[٣] ويقال: هو ابن عمٍّ لَحٌّ، أيضًا،[٤] وهو من

---

(١) انظر مثلاً: إسماعيل بن حماد الجوهري، *الصحاح*، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار (القاهرة: د. ن.، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص ص١٤٠٠، ١٨١١؛ وابن سيده، علي بن إسماعيل، *المخصص*،بعناية محمد محمود التركزي الشنقيطي (القاهرة: دار الطباعة الأميرية، ١٣٢١هـ)، جـ٣، ص ص١٤٩، ١٥١.

وقال ابن الأعرابي: «الكلالة بنو العم الأباعد» فهي تطلق، في رأيه، على جماعة بني العم. انظر: أحمد بن فارس، *مقاييس اللغة* (القاهرة: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، جـ٥، ص١٢١.

وللعلماء في معنى (الكلالة)، التي وردت مرتين في سورة النساء، أقوال أخرى هي: أنه من مات ولم يكن له وَلَدٌ ولا والِدٌ حيٌّ، وأنه من لا وَلَدَ له، وأنه ما عدا الوالد: انظر مثلاً: عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، *زاد المسير* (دمشق: المكتب الإسلامي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، جـ٢، ص٣١ والتي تليها.

(٢) محمود بن عمر الزمخشري، *أساس البلاغة* (بيروت: دار صادر/ دار بيروت، ١٩٨٥هـ/١٩٦٥م)، ص٤٠٥.

(٣) الجوهري، *الصحاح*، ص٤٠٠؛ وأبو يوسف يعقوب بن إسحق بن السكيت، *إصلاح المنطق*، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، ص٣١٢؛ وابن سيده، *المخصص*، جـ١١، ص١٥١؛ وانظر: المفضل بن سلمة بن عاصم، *الفاخر*، تحقيق عبدالحليم الطحاوي (القاهرة: وزارة الثقافة، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م)، ص٣٢.

(٤) الجوهري، *الصحاح*، ص٤٠٠؛ وابن السكيت، *إصلاح المنطق*، جـ١١، ص١٥١؛ وأبو عكرمة =

قول العرب: لحِحَتْ عينه أي التزقت.[٥] وقال الأصمعي: «معنى قولهم: هو ابن عمه لَحًّا، أي خالصًا،»[٦] وقيل إن المراد أنه ابن عمٍّ على التقريب،[٧] أي تقريبه من القائل، وإن لم يك ابن أخي أبيه. كما يقال له ابن عم قُصْرَة، وابن عمٍّ دُنْيا،[٨] كما يطلق على ابن العمِّ مولى سواء كان ابن عمٍّ لَحًّا أو كلالـةً، وهي لفظة تطلق أيضًا على المنتمين لفئات اجتماعية أخرى، مما يجشم الباحث الكثير من العناء حين يلتمس لمعناها دلالة دقيقة مميزة،[٩] فهي تطلق على كل من السيد الذي أعتق عبدًا فَيُدعى مولى من أعتق، والعبد المُعْتَق فيدعي مولى من أعتقه، والجار، والناصر، والمالك، والمولى في الدِّين، والحليف، والصِّهر.[١٠] وقد قصرها ابن رشيق على اثنين بجانب ابن العمِّ هما مولى اليمين المحالِف، ومولى الدار المجاور.[١١] والمارُّ بهذه اللفظة في كل من المواد اللغوية المعجمية، والمادة الأدبية القديمة يعي، بدون إطالة نظر، أن ابن رشيق قد حصر واسعًا، والسياق وحده هو الذي يعين على تحديد مدلولها، وإن بشيء من عسر، كما ذكرنا.[١٢]

= الضبي، *الأمثال*، تحقيق رمضان عبدالتواب (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٩٤.

(٥) انظر: أبا عكرمة الضبي، *الأمثال*، ص٩٤؛ ومحمد بن القاسم الأنباري، *الزاهر*، تحقيق حاتم الضامن (بغداد: دار الرشيد، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، جـ١، ص٤٨٠.

(٦) ابن عاصم، *الفاخر*، ص٣٢.

(٧) ابن عاصم، *الفاخر*، ص٣٢.

(٨) ينظر مثلاً: الزمخشري، *أساس البلاغة*، ص١٧٩، (دنو)، وص٥١٠ (قصر).

(٩) إحسان النص، *العصبية القبلية في الشعر الأموي* (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٣م)، ص٦٦-٦٧.

(١٠) انظر مثلاً: الجوهري، *الصحاح*، ص٢٥٢٩؛ وعلي بن الحسن الهنائي، *المنتخب من غريب كلام العرب*، تحقيق محمد أحمد العمري (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مركز إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص٤٠٤.

(١١) أبو علي الحسن بن رشيق، *العمدة*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: المكتبة التجارية، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، جـ٢، ص١٩٨.

(١٢) وربما احتاج الأمر إلى تأمل واستنطاق للنَّصِّ لتحديد المعنيِّ بها أهو ابن عمٍّ أم جارٌ، أم حليفٌ، أم غيرهم، وأحيانًا ماكان للباحث بُدٌّ من الاكتفاء بما يبدو لهَ الأرجح. وللمزيد من مدلول هذا اللفظ يراجع مثلاً: النص، *العصبية*، ص ص٦٦-٧٠.

ومن الجليِّ أن وراء دعوة الرجل أيَّ فرد من قومه ابْنَ عمِّه غايةً مَوعِيَّةً هي تقريبه إليه، وهي رغبة ناشئة عن شعورٍ طاغٍ بمتانة حبل العصبية القبلية التي تصهر الأفراد في بوتقتها فتضحي القبيلة بأسرها كأنها أسرة واحدة.

وفي الإبداع الفنِّيِّ القديم، ولاسيما الجانب الشعري منه، يوقع على قدر غير قليل من المضامين المعبرة عن تعزيز العصبية الدموية بين المنتمين لفئة عرقية واحدة (قبيلة، حيّ، فصيلة، عشيرة، بطن، فخذ... إلخ)، أو عن التعاطف مع الأقربين، وهو تعاطف طَبعيٌّ يمليه الشعور بوحدة الانتماء ووشيجة القربى. ومن النماذج الممثلة للضرب الثاني:

أرقُّ لأَرْحَامٍ أراها قريبةً ... لِحَار بْن كَعْبٍ لا لِجَرْمٍ وَرَاسِبِ

وأنَّا نرى أقدامنا في نِعَالِهم ... وآنُفَنَا بين اللِّحَى والحَوَاجِب[١٣]

فهو يحنُّ إلى بني الحارث بن كعب لما يشعر به من قرابة متينة بين قومه وبينهم وحدت بين القومين في الملامح والهيئات توحيدًا تاماً ألغى التباينات، حتى إن العبسيين إذا تفرسوا في قسمات وجوه الحارثيين فكأنما يرون ملامح وجوههم، وإن نظروا إلى أقدامهم أَلْفَوْها كأقدامهم.

ومن تلك المضامين قدر يدور حول واحد من أهم ذوي القربى هو ابن العم. وما من ضير، وإن استبقنا البحث، في الإيماء إلى تضمن ذلك القدر كثيرًا من إبداء الولاء التامِّ لابن العمّ، ورَعْي رابطة قرباه، وحفظ حقه، وصلته، ودفع الضيم والهضم عن جانبه، والصفح عن زلله، وغفران عوراته... وكثير غيرها مما هو مُتَبَدٍّ، إن شاء الله لاحقًا، مما يُحْيِي روح التآزر بين بني العمِّ والأقربين، فييسر على الأمة، أو على فئاتٍ منها، على الأقل، مجابهة النوازل، ومواجهة النائبات.

لقد بلغ من تعظيم بعضهم لِقَدْر ابن العَمِّ، عند الحاجة، أن وازن بينه وبين سلاحه الذي ربما أنجاه، بإرادة الله تعالى، من مصرعٍ شبه محتوم. فابن العمِّ الصادق الولاء ربما يَثْبُتُ بجانب ابن عمه إذ يعز الثابتون، في ذلك الموقف المتناهي العسر، حين يُلْفِي نفسه في جوف مَعْمَعَةٍ وجهًا لوجهٍ مع مقاتل شديد الجرأة عنيد، فيؤازره على قهره، ورَدِّ كيده إليه، والسلامة من بطشه:

(١٣) أحمد بن محمد المرزوقي، شرح *ديوان الحماسة*، تحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ص ص٣٢٨-٣٢٩.

وإنَّ ابْنَ عمِّ المـرءِ مثـلُ سلاحِـهِ يقـيه إذا لاقـى الكَمِيَّ المُقَنَّعـا[١٤]

وذلُّ ابْنِ العَمِّ من ذُلِّ ابْنِ عَمِّهِ، فعلى كل منهما ألا يَأْتليَ جهدًا في سبيل دفع الذل عن صاحبه، وتحقيق عزّه ومنعته:

وأَعْـلَمُ علمًا ليس بالـظَّنِّ أنـه إذا ذَلَّ مَوْلَى المـرءِ فهـو ذَلِـيلُ[١٥]

وعـلى الرجل أن يَجِدَّ في التماس ابن العمِّ الصادقِ في الشعور بقرابته لابن عمه، والالتـزام بما تفرضه عليه هذه الواشجة نحوه من واجب، فكثيرٌ من أبناء العم يرضونك بأفـواههم، وما تخفي صدورهم غير مُرْض، فمواعدهم المبهجة سرعان ما تَتَلاشَى دونما طائل تلاشِيَ سحابٍ جَهَامٍ أو برقٍ خُلَّب:

تَبَـغَّ ابْنَ عَمِّ الصِّـدْقِ حيث لَقِيتَـهُ فإنَّ ابْنَ عَمِّ السُّوءِ إن سَرَّ يُخْلِفُ[١٦]

ولابن العمِّ مكانةٌ لا تُدَانَى، فإن لم يَعُدَّهُ العربي الكريم أعلى قدرًا منه، وأجلَّ شأنًا، فلن يَعُدَّهُ، بحالٍ، أدنى منه:

إذا أنـا لم أَرَ ابْـنَ الـعَـمِّ فوقـي فإني لا أرى ابْـنَ الـعَـمِّ دوني[١٧]

ورَسَمَ شاعرٌ آخر، في أبيات مشحونة بالمضامين، السلوك الأمثل الذي يرى المرءَ قَمِنًا بتوَخِّيهِ في تعامله مع ابن عمه إذ اتسمت نظرته إلى القضية بالشمولية ولم تنحصر في تجربته الذاتية، وإن بدت كذلك لأول وهلة من حيث القالبُ اللفظي.

إنه يؤكد أن سيقف مواقف نبيلة عديدة إزاء ابن عمه في شتى الأحوال التي يلفيه فيها: فإن غاب حفظ غيبه، فلم يَحُلْ نأيه بينه وبين الذَّبِّ عن عِرْضه، والدفع عنه. وإن عَضَّه الدهر بنابه، أو أودت السنون العجافُ بماله، أشركه فيما يملك، وخلط إبِلَهُ الصِّحَاحَ بإبل ابْنِ عَمِّه الجَرْبَى، ولزمه فشاركه في لأوَائِهِ، ولم يَنْفَضَّ عنه، وإن جاء أهله بعد غيبة

---

(١٤) علي بن الحسين الأصبهاني، *الأغاني* (القاهرة: دار الكتب، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م)، جـ٣، ص٢٠٢. وقائله هو غيلان بن سلمة الثقفي.

(١٥) طرفة بن العبد، *الديوان*، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال (دمشق: مجمع اللغة العربية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص٨٤.

(١٦) البيت لحاتم. انظر: يحيى بن مدرك الطائي، *ديوان شعر حاتم بن عبدالله الطائي وأخباره*، تحقيق عادل سليمان جمال (القاهرة: د. ن.، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص١٩٥.

(١٧) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٩٠.

جالبًا ما يجلبه الآيب، بعد طولِ غيابٍ، من طرائف لم يُثْقِل عليه فيرمي بطرفه نحو بيته ليطلع على ما جاء به. وإن رأى عليه كساءً حسنًا لم يَنْفِسْهُ عليه فيود أنه كان له دونه، وإن رآه يسخو بماله وَفَّرهُ وعفَّ عنه، وإن طلب منه ركوب مركَبٍ وَعْرٍ معه تَسَنَّمَه، وإن لزمته حَمَالَةٌ أو مَغْرَمَةٌ هبَّ لِعَوْنِه على أدائها، وأهان عَقَائِلَ ماله وكرائمَه في سبيل ذلك:

إني وإن كان ابْـنُ عَمِّـي غائـبًـا ... لَمُقَـاذِفٌ من خلفِـهِ وورائِـهِ
ومُـفِيدُهُ نصري، وإن كان امـرأً ... مُتَـزَحْـزِحًـا في أرضِـه وسـمائِـهِ
ومتى أَجِئْـهُ في الشـدائـد مُرْمِـلاً ... أُلْـقِ الـذي في مِزْوَدِي لِوعـائِـهِ
وإذا تتـبـعـت الجـلائِـفُ مالَـنَـا ... خُلِطَتْ صحيحتنـا إلى جَرْبـائِـهِ
وإذا أتـى من وِجْـهَـةٍ بطريفـةٍ ... لم أَطَّـلع مما وراءَ خِبـائِـهِ
وإذا اكـتسى ثوبًـا جميلاً لم أقـل ... يا ليت أن عَلَيَّ حُسْـنَ ردائِـهِ
وإذا تَخَرَّق في غنـاه وَفَـرْتُـهُ ... وإذا تصعـلك كنت من قُرَنَـائِـهِ
وإذا غَدَا يومًـا لِنَـرْكَـبَ مَرْكَـبًـا ... صعـبًـا قعـدت على سِيسَـائِـهِ
وإذا جنـى غُرْمًـا سعيت لِنَصْرِهِ ... حتى أُهـين كرائِمي لفـدائـه[١٨]

إنه، بإجمال، يُحِلُّ ابْنَ عمه مَحِلَّ نفسه، بل ربما آثره عليها، ولو كان به خصاصة، فهـو يخفف عنه كل عبءٍ، وييسر كل عصِيٍّ، وهي صورة، وإن بدت مُغْرِقَةً في المثالية (اليوتوبية) الصارخة مما يجعلها أدنى إلى مخيلة الشعراء المجنحة من أن توحِيَ بخُلُقٍ مُمَارَس، فإنها لتنبىء جهرًا بِحِسٍّ كامِنٍ في أعماق الوجدان العربيِّ قديمًا بحتمية التضحية من أجل تقوية آصرة بُنُوّة العم وتوطيدها.

---

(١٨) تعزى الأبيات لشاعر طائي يحتمل أنه عاش في الجاهلية يدعى الهذيل بن مَشْجَعَة البولانيّ، كما تعزى لأبي عَرُوبَة المدني، وعزي بعضها لعمرو بن النَّبيت الطائيّ، وهو شاعر جاهلي، انظر: وفاء السنـديوني، شعـر *طيىء وأخبـارهـا* (الرياض: دار العلوم، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، جـ٢، ص ص٤٩٣ ـ ٤٩٤؛ ومحمد بن داود الجراح، *من اسمه عمرو من الشعراء*، تحقيق عبدالعزيز المانع (القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص ص٨٦، ٨٧.

الجلائف: جمع الجليفة، وهي السنة الشديدة التي تجلف المال، أي تَضُرُّ بِهِ وتهلكه. تَخَرَّقَ في غناه: توسع في الجود بماله. سيسائه: سيساء ذي الحافر ظهره.

هذا وبتأمل المادة التي بين أيدينا عن ابن العم واستقرائها أُلْفِيَتْ تدور، بصفةٍ عامة، حول شأنين اثنين: أحدهما: التبعات التي حملها الشاعر القديم نحو ابن عمه، والآخر: معاناة الشاعر من معاداة ابن عمه له وإيذائه إياه.

أولا: التَّبِعات التي حَمَلها الشاعر نحو ابن عمه

تنضوي التبعات التي حملها الشاعر نحو ابن عمه، أو ادَّعى حملها، تحت المواقف الإيجابية التالية:

١ ـ حفظ حقه

٢ ـ إكرامه وصلته، ومواساته إن احتاج

٣ ـ نصره ودفع الضيم عنه

٤ ـ الصفح عن زلله، وتحمل أذاه

٥ ـ كف الأذى عنه

٦ ـ إيواؤه وحمايته إن خاف

٧ ـ الأخذ بثأره إن قتل

١ ـ حفظ حقه

لابن العم حق يوجب العربي الكريم على نفسه حفظه وَرَعْيَهُ أينما حلَّ وحيثما رحل، دانيًا أو قاصيًا، ولا سيما حين يلتمس ابن عمه النصر فيتوارَى الناصرون، ويستنجد فلا يُقْبِل نحوه منجدون:

فإنْ أَنْأَ أوأَقْرُبْ فإني لَحَافِظٌ لِحَقِّ ابْنِ عَمّي حين يَضْعُفُ ناصِرُه[١٩]

ومن حقِّ ابن العَمّ أن يواليَ ابن عمه من والاه، وألا يصادق أو يوالي من عاداه، وهذا وإن شُمَّت منه ريح العصبية الجَهلاء التي تدعو الجماعة بأسرها إلى أن تغضب لمجرد غضب فرد من أفرادها كما قال الشاعر عن قومه:

أولئك قومي إن دعاهُمْ أخوهُمُ أجابوا، وإن يَغْضَبْ على القوم يغضبوا

(١٩) محمد وسعيد ابنا هاشم الخالديان، *الأشباه والنظائر* (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٨م)، جـ١، ص٧٧. والبيت لِقُتَاوَةَ بن طارق الأزدي.

فإن فيه مؤازرةً لابن العم، ونأْيًا عما يعكِّرُ صفو علاقته بابن عمه، وذلك مما تفرضه الروح القبلية القائمة على شدة التآزر بين بني العم وأبناء الوحدة القبلية الواحدة، وليس فيه من بأس في المعيار الخلقيّ الجاهليّ، بل إن ابنَ العمّ، وإن صَدَفَ عن ابن عمه بوُدِّه، فإنه لينزع إلى أن يقف معه ضد من يعاديه من سائر الناس، فهو، كما نعته أعرابي، «عَدُوُّكَ وعَدُوُّ عَدُوِّك» :[٢٠]

ولا أَتَـصَـدَّى لِلْمُـلُوكِ، ولا يُرَى عَدُوُّ ابْنِ عمِّي لي رفيقًا أُسَـايِرُه[٢١]

٢ ـ إكرامه وصلته ومواساته إن احتاج

في الشعر القديم تباهٍ محسوس بإقالة عثرة ابن العم وإنقاذه من سقطته، وإن كانت سقطة كبرى لا يكاد يقوم منها، وبعدم الضَّنِّ عليه بالنصر إن نزلت بساحته نازلة، ولا بالنائل إن احتاج، حتى إن صَفِرَتْ وِطابُهُ من أي وُدٍّ لابن عمه :

وإني لا أَضِـنُّ على ابْـن عمِّـي بنصري في الخـطوب ولا نوالي[٢٢]

وأستنقـذ المـولى من الأمـر بعـدما يَزِلُّ كما زَلَّ البعـير عن الـدَّحْض

وأمـنحـه مالي وعِـرْضي ونصرتي وإن كان مَحْنِيَّ الـضلوع على بُغْضِي[٢٣]

ويُلْمَسُ الجمع في الشعر بين ابن العم، والجار، والرجل الشريف المكافِىء لك في النسب، والضيف، أو مَنْ نابَتْهُ نائِبَةٌ، في أهليتهم للإكرام :

(٢٠) عبدالله بن مسلم بن قتيبه، *عيون الأخبار* (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م) جـ٣، ص٨٨.

(٢١) الخالديان، *الأشباه والنظائر*، جـ١، ص٧٧، وهو للشاعر نفسه. وسيأتي لاحقًا لوم يزيد بن الحكم ابن عمه على أمور منها إبداؤه الود لأعدائه :

تُصَـافِـحُ من لاقـيتَ لي ذا عداوةٍ . . . .

تفـاوضُ من أطـوى طوى الكشـح دونـه . . . .

(٢٢) للأعور الشنى (بشر بن منقذ العبدي، وهو شاعر عاش في العصر الأموي)؛ انظر: عبدالله بن مسلم بن قتيبـة، *الشعـر والشعـراء*، تحقيق أحمـد محمـد شاكـر (القاهرة: دار التراث العربي، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص٦٤٣.

(٢٣) ينسبـان لكل من طرفة والحكم بن عبدل الأسدي (عاش في العصر الأموي)؛ انظر: طرفة بن العبد، *الديوان*، ص١٦٩؛ والمرزوقي، شرح *الحماسة*، ص١١٦٥.

خيرُ حَيٍّ من مَعَـدٍّ عُلِمُـوا لِكَـفِـيءٍ ولِجَـارٍ وابْـن عَمّ[٢٤]
كالـلُّوبِ يُبْـذَلُ جَمُّهَـا وحَـفِيلُهـا لِلْجَـارِ وابْـنِ الـعَـمِّ والْمُنْتَـابِ[٢٥]

وتدور في الشعر مضامين عديدة عن صلة ابن العم، والحُنُوِّ عليه، وتخفيف تبريح ما قد يُلِمُّ به، فمن آبٍ لَوْمَ امرأته إياه على إكرام ابن عمه، مُبْدٍ عَدَم قبوله واستنكارَهُ لأن يدع الحليب مُتْرَعًا به ضرع ناقته على حين أن له ابْنَ عَمٍّ عيانَ تائقًا إلى اغتباقه، ومن مُبَاهٍ بأن ماله أفنته جِفانٌ كالجوابي مُتْرَعَاتٌ بالطعام الدسم اللذيذ الذي يقدم للأضياف والمعتفين، كما أفناه بَذْلٌ لابن العم المُعْتَرِّ البائس، ومن مُتَغَنٍّ بكثرة نعشه بني عمه من وهاد المتربة واللأواء، ومن مردد سعيدا حُنُوَّه وعطفه على ابن عمٍّ مسَّهُ من البؤس ما حمل أقربيه غير الأوفياء على الانفضاض عنه وهجره، فحنا عليه حُنُوَّ المرضعة على الفطيم، حين عم شظف العيش، حتى إن الناقة تنكرت لِحُوَارِها فشحت بدَرِّها عليه، ومن مؤكِّدٍ أن يسره لن يزيده عن ابن عمه بُعْدًا، وإن كان فقيراً لا يملك شَرْوَى نقير:

بَكَـرَتْ تلومُكَ بعد وَهْنٍ في النَّدَى بَسْـلٌ عليك ملامـتي وعـتـابي
أَأَصُرُّهـا وبُـنَيَّ عَمِّـي ساغِـبٌ فكفـاك من إِبَـةٍ عليَّ وَعَـاب[٢٦]
ولـكـنَّ مالي غالَـهُ كلُّ جَفْـنَـةٍ إذا حان وِرْدٌ أَسْـبَـلَتْ بِدُمُـوع
وإعـطائِيَ المَـوْلى على حين فَقْـره إذا قال: أَبْصِرْ خَلَّتِي وخشـوعي[٢٧]

---

(٢٤) البيت لطرفة. انظر: طرفة بن العبد، *الديوان*، ص١١٠.

(٢٥) لكعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه. ينظر: كعب بن مالك الأنصاري، *ديوانه*، تحقيق سامي مكي العاني (بغداد: مكتبة المعارف، ١٣٥٦هـ/١٩٦٦م)، ص١٧٨. اللُّوب: جمع لُوبَة، وهي الحَرَّة. جَمُّها: ما اجتمع من لبنها أو الكثير منها، وكذلك الحفيل. المنتاب: القاصد أو من انتابته نائبة.

(٢٦) هما لشاعر يدعى ضمرة بن ضمرة النهشلي. انظر: محمد بن يزيد المبرد، *الفاضل في اللغة والأدب*، تحقيق عبدالعزيز الميمني (القاهرة: دار الكتب، ١٩٥٥م)، ص٧٩. بَسْل: حرام. أَأَصُرُّها: أي الناقة. وَصَرُّها: ربط خِلْفِهَا بخيطٍ وعُودٍ حتى لاتُحْلَبَ أو يرضعها فصيلها. إِبَة: انقباض واستحياء. عاب: عيب.

(٢٧) لبيد بن ربيعة العامري، شرح *ديوانه*، تحقيق إحسان عباس (الكويت: وزارة الإعلام، ١٩٨٤م)، ص ص٧٠، ٧١.

فَعَشْرَةِ مَوْلًى قد نَعَشْتُ، وأُسْرَةٍ كرامٍ، وأبطالٍ لدى كُلِّ مأزِقِ[٢٨]
ومولىً جَفَتْ عنه الموالي كأنه من البؤس مَطْلِيٌّ به القارُ أَجْرَبُ
رَئِمْتُ إذا لم ترأم البازلُ ابْنَها ولم يك فيها لِلْمُبِسِّينَ مَحْلَبُ[٢٩]
ولا زادني عنه غِناي تباعُدًا وإن كان ذا نَقْصٍ من المال مُصْرِمَا[٣٠]

ويُثْنَى على الرجل في الشِّعْر بلين جنابه مع ابن عمه المُعْتَرِّ السيىء الحال، ولا سيما إن أَلَمَّت به مُلِمَّاتٌ يوشك ألا ينهضَ منها، فبات في أشدِّ حاجةٍ إلى شَدِّ الأزر، لكنَّ أدانِيَهُ تركوه يعاني محنته، فما بالك بالأبعدين؟

حَدِبٌ على المولى الضريكِ إذا نابت عليه نوائبُ الدَّهْرِ[٣١]
يعود على مولاه منه بِرَأْفَةٍ إذا ما الموالي عن أخيها تَخَلَّتِ[٣٢]

٣ ـ نصره ودفع الضيم عنه

نصر ابن العم والوقوف معه في السَّرَّاء والضَّرَّاء من القيم المتأصلة في النفس العربية التي يتوقع كلٌّ من الناصر والمنصور الالتزام بها، ويرونها حقًّا موجبًا لا محيد عن الوفاء به، ولهذا قالت العرب: «لا تَعْدَمُ من ابْنِ عَمٍّ نَصْراً.»[٣٣] فهو، وإن وهت صلته بك، لا يتخلى عنك إذا جَدَّ الجِد.

---

(٢٨) خُفاف بن ندبة، شعره، تحقيق نوري حمودي القيسي (بغداد: دار المعارف، ١٩٦٨م)، ص٣٠.

(٢٩) المرزوقي، *شرح الحماسة*، ص١١٦٨. المبسون: الذين يمسحون ضروع النوق لتدر فيحلبوها.

(٣٠) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٣٨. مصرما: قليل المال.

(٣١) لزهير في مدح هرم بن سنان. انظر: أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني ثعلب، *شرح ديوان زهير بن أبي سلمى* (القاهرة: دار الكتب، ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م)، ص٩٠. الضَّرِيك: المحتاج، السيىء الحال.

(٣٢) للخنساء في رثاء صخر. انظر: الخنساء، *ديوانها* (بيروت: دار صادر، د.ت.)، ص١٨.

(٣٣) أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري، *جمهرة الأمثال*، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م)، جـ٢، ص٤٠٣؛ وأحمد بن محمد الميداني، *مجمع الأمثال*، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد (القاهرة: د.ن.، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م)، جـ٢، ص٢١٤. وفيه (ابن عمك).

وقد هيمنت مسألة «نصر ابن العم» على وجدان حاتِم، بحيث بات إذا افتخر لا يكاد يفرغ من التباهي بها حتى يعود إليها كرة أخرى. فهو سينصر ابن عمه، إن كان على حق، وسيمحو عنه الجور، إن جير عليه، بحسامه، لأن من لا ناصر له يُسْتَضْعَفُ ويُتَّخذُ غرضًا للإيذاءِ والشتم، بل إنه لن يضايقه حتى إن كان هو الجائر:

سأنصره إن كان للحــقّ تابــعًـــا وإن جار لم يَكْـثُـــر عليه التَّعَــطُّفُ

وإن ظلمـــوه قُمْت بالسيف دونـــه لأنصره، إن الـضـعـيف يُؤَنَّفُ[٣٤]

وينظر حاتم إلى (خذلان ابن العم) في المحنة نَظَرَهُ إلى جرم يجتهد في التبرؤ منه ونفيه عن نفسه، وما ذلك منه بمستغرب: فهو لا يخذل ابن عمه في الضرَّاء، وإن اعتاد ابن عمه على خذلانه فيها، ولا يخذله وإن كان سيىء الخلق في تعامله معه، وكان يبطن له ضِغْنًا دفينًا، ولا يتعرض ابْنُ عمِّه، على مرأى ومسمع منه ومن قومه، للإيذاء دون أن يحركوا ساكنًا، شأنَ القوم المؤَدِّين لما تفرضه وشائج الرحم والقربى عليهم من فروضٍ تجاهه:

ولا أخـــذل المـولى وإن كان خاذلاً .... [٣٥]

ولا أخـــذل المـــولى لســـوء بلائـــه وإن كان محنيَّ الضلوع على غُمْر[٣٦]

ولا يُلْطَم ابْـنُ الـعَـمِّ وسط بيوتنـــا .... [٣٧]

ومما افتخر به لبيد دفعه الضيم عن ابن عمه.[٣٨]

ويثنى على الرجل بأنه يكون في عون ابن عمه في البأساء، ويشد أزره في اللأواء:

وكـان أخـا المـولى إذا خاف عَثـرَةً شَرِيكُ، وخَصْمَ الأصيدِ المُتَشاوس[٣٩]

---

(٣٤) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٢٥. يُؤَنَّفُ: يُحَدَّدُ إليه النظر ويُشْتَم. التَّعَطُّف: من (تَعَطَّفَ عليه) أي أكثر الرجوع عليه بما يكره.

(٣٥) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٣٨.

(٣٦) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٥٢.

(٣٧) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٣٢.

(٣٨) انظر: لبيد بن ربيعة العامري، *ديوانه*، ص١٠١ (ومولًى قد دفعتُ الضَّيْمَ عنه).

(٣٩) لجرير يرثي شَرِيك بن الحميرية أحد بني كليب. انظر: جرير، *الديوان*، بشرح محمد بن حبيب، تحقيق نعمان محمد طه (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦م)، ص٧٣٢. الأصيد: المميل رأسه كِبْرًا كأنه بعير في خيشومه داء الصَّاد. المتشاوس: الناظر بمُؤخرِ إحدى عينيه تكبُّراً.

إن نصر ابن العم لَتَبِعَةٌ تحملها القبيلة وتَجِدُّ في إحسان أدائها، وإن قادَ هذا الأداء حتى إلى قطع حبال العهود والعقود، ومعاداة الأجنبي العريق في الموادعة والمهادنة: كان بين بني سهم بن معاوية، وهم حيٌّ من هذيل، وبين بني سُلَيم تآلفُ بحيث لايصدر من أحد الحَيَّيْن نحو الآخر أذى. وذات يوم نشب قتال بين بني سُلَيم وبني لِحْيَانَ، وهم هُذَلِيُّون، فجمع مَعْقِل بن خويلد السهمي، وكان سيِّدًا مُطاعًا في قومه،(٤٠) ألف رجل منهم لِيُمِدَّ بهم لِحْيَانَ وينصُرَهم. ولما احتجّ بنو سُلَيم على هذا الموقف، على ما بينهم وبين بني سهم من مسالمة، أجابهم إجابة أنموذجية لموقفِ أيِّ عربيٍّ جاهِليٍّ في مثل هذا الحال، هو قوله مستنكرًا: «وهل يُسْلِمُ القوم بني عمهم؟» ثم أبلغهم أنهم، إن كفوا عن مقاتلة اللِّحيانيين، فسَهْمٌ وسُلَيْمٌ على ماكانوا عليه من مُوادَعَة وتَصَافٍ. أما إن مضوا في حرب لِحْيانَ فإنّ سهمًا ناصِرَتُهَا لامحالة. فكفَّتْ، عندئذ، سُلَيْمٌ عن قتال لحيان.

وقد سجل معقل هذه الحادثة، ودفع عن وقفة قومه فيها، فوجد في استنصار سليم سهمًا على لحيان، أو بعبارة أخرى (محاربة هذيل) أمرًا غريبًا، وأبلغهم أن بني لحيان بنو عمٍّ بني سهم، من يرمِهِمْ بِسَهْمٍ يرمِ الحَيَّيْنِ كليهما، بل إنهم لبنو عم وجيرانٌ في آنٍ واحد، لحلولهم قريبًا من موطن سهم. وأكد عدم حفوله بغضب سُلَيم لهذا الموقف: «من ساءه اتحادنا واجتماعنا فَلْيَظَلَّ مَسُوءًا.» وهو، على هذا كله، يستقل هذا العدد الذي أَلَّفَهُ لنصر لِحْيَانَ، ويرى فيه، لِقِلَّتِهِ، خذلانًا لهم، حتى يجند أعدادًا أكثر تكفل لهم النصر:(٤١)

تقول سُلَيْمٌ: سالِمُونا وحارِبُوا ... هُذَيْلًا، ولم تَطْمَعْ بذلك مطمعًا!

فأما بنو لِحْيَانَ، فاعْلَمْ بأَنَّهُم ... بنو عَمِّنَا من يَرْمِهِمْ يَرْمِنا مَعَا

بنو عَمِّنَا جاءوا فَحَلُّوا جَنَابَنَا ... فمن سَاءَهُ، فَسِيءَ، أن نَتَجَمَّعَا

وإن خُذُولِيهِمْ على أن أُمِدَّهُمْ ... بِأَلْفٍ إذا ماحاولوا النَّصْرَ أَقْرَعَا(٤٢)

---

(٤٠) انظر: الحسن بن الحسين السكري، شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبدالستار فراج (القاهرة: مكتبة دار العروبة، د.ت.)، ص٣٧٣.

(٤١) انظر: السكري، شرح *أشعار الهذليين*، ص٣٧٥.

(٤٢) السكري، شرح *أشعار الهذليين*، ص٣٧٥. لم تطمع بذلك مَطْمَعا: الظاهر أنه يتهكم فيقول كأنها لم تطمع منا بطلبها هذا بمطمع عزيز المنال! أقرع: تامّ.

٤ ـ الصفح عنه وتحمل أذاه

يبلغ إحساس العربي بمتانة لُحْمَة النسب التي تشبكه بابن عمه حدًّا يجعله يوجب على نفسه التعامل معه تعاملاً إيجابيًّا متميزًا كثيرًا عن تعامله مع سواه، لاسيما إن بدرت إليه منه كبوةٌ أو عثرةٌ أو حتى جُرْمٌ.

والصورة التي يرسمها الأدب القديم للرجل أو (السيد) الأمثل تبديه مُتَخَلِّقًا بِشِيَمٍ من مكارم الأخلاق عديدةٍ منها الصفح عن المولى. وأنصع الأمثلة المثالية في هذا الاتجاه موقف معروف لسيد معروف هو قيس بن عاصم المِنْقَريُّ حيث (جاءوا إليه بابن له قتيلٍ، وابْنِ عَمٍّ كَتِيفٍ)،(٤٣) وأبلغوه أن ابن عمه قتل ابنه، (فما قطع حديثه، ولا حَلَّ حُبْوَتَهُ)،(٤٤) وأمر أحد أبنائه بإطلاق القاتل، ودفن أخيه، وإعطاءِ أُمِّ القتيلِ دِيَتَهُ مائةَ ناقةٍ مواساةً لها لأنها غريبةٌ ليست من نساءِ الحي.(٤٥)

لكنَّ مثلَ هذا الموقف المدهش ليس يصلح، لِشِدَّة نُدْرَته، ليقاس عليه حال التعامل بين بني العمّ، ولا ليُسْتَدَلَّ به عليها. وأما الشِّعر فإنه ليرسم صورًا، وإن لم تبلغ مبلغ هذه الصورة الصارخة في المثالية، فإنها لَتَشِي بنزوعٍ قويٍّ لدى الشعراء المفتخرين إلى الإدلال بالصفح عن زلات بني عمهم، وإقالة عثراتهم. فأحدهم يُدِلُّ بأنه، وإن أعرض ابن عمه عن مؤانسته وهَجَرَهُ، بل وإن ناله منه شرٌّ لايطاق، فإنه لن يهتبلَ فرصةً، إن حانت، لمعاقبته، وإنما سيتناسى أذاه طمعًا في أن يثوب رشده إليه، ويعودَ عن الاستيحاش من ابن عمه إلى مصافاته، لأن من أَشَدِّ الجهل وسوءِ العمل معاداةَ الأدنى، وإن كان قاطع رحم:

ولا أَدْفَعُ ابْنَ العَمِّ يمشي على شَفَا ... ولو بَلَغَتْني من أَذَاهُ الجَنَادِعُ
ولكنْ أواسيه وأنسى ذنوبَهُ ... لِتُرْجِعَهُ يومًا إليَّ الرَّوَاجِعُ
وأُفْرِشُهُ مَالِي، وأحفظ غيبه ... ليسمَعَ أنِّي لا أجازِيهِ سَامِعُ
وحَسْبُكَ من جَهلٍ وسوءِ صَنِيعَةٍ ... مُعَادَاةُ ذي القُرْبَى وإن قِيلَ قَاطِعُ(٤٦)

---

(٤٣) محمود بن عمر الزمخشري، *المستقصى في أمثال العرب* (حيدر آباد، الدكن: المطبعة العثمانية، ١٩٦٢م)، جـ١، ص٧٠.

(٤٤) الزمخشري، *المستقصى*، جـ١، ص٧٠.

(٤٥) انظر: الزمخشري، *المستقصى*، جـ١، ص٧٠.

(٤٦) هو عبيد بن عبدالعزى السلامي (جاهلي). انظر: يحيى الجبوري، *قصائد جاهلية نادرة* (بيروت: =

وآخر يَهُبُّ لإنقاذ ابن عمه الزَّالِّ زَلَّةً كبرى كَزَلَّةِ بَعِيرٍ بطينٍ، وذلك باغتفار خطئه، ومقابلة ذنبه الجليل بِحِلْمٍ جليلٍ، مع مقدرَة تامَّةٍ على تسديد سهامٍ مدمية من كاوياتِ الكَلِم الموجعات نحوه:

وأَسْتَنْقِذُ المَوْلَى من الأمر بعدما يَزِلُّ كما زَلَّ البَعيرُ عن الدَّحْضِ
ويَغْمُرُهُ حِلْمي ولو شِئْتُ نالَه عواقب تَبْري اللَّحْمَ من كَلِمٍ مَضِّ[٤٧]

ويمضي الشعر في الدعوة، وإن بصورة غير مباشرة، إلى السماحة والملاينة بين بني العمِّ بِعَدِّ الصفح عن ابنِ العَمِّ المسيءِ، وغفرانِ عورائِهِ، من مكارمِ الأخلاقِ التي يحرص الفاخرون على نعت أنفسهم بها:

ألا أَعْتِبُ ابْنَ العَمِّ إنْ كان ظالمًا وأغفر عنه الجهلَ إن كان أجهلا[٤٨]
وأغفر إن زَلَّتْ بمولايَ نَعْلُهُ ولا خير في المولى إذا كان يُقْرِف[٤٩]

٥ ـ كفُّ الأذى عنه

وإذا كان حفظ حقِّ ابن العم وصِلَتُهُ ونَصْرُهُ، ودفعُ الضَّيْم عنه، والصَّفْحُ عن زلله من المواقف الخلقية التي حرص الشعر على تأكيدها في سياق الافتخار والمدح بالتزامها، فإنه لمن باب أولى أن يبدُوَ فيه تأكيدٌ قويٌّ على كف الأذى عنه في مختلف صوره. ومن صور الأذى التي تَبَدَّى تَبَرُّؤ الشاعر العربيِّ القديم منها تجاه ابن عمه القسوةُ عليه وتعنيفُه، فأحد

= مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص١٢٣. وتنسب أيضًا لمحمد بن عبدالله الأزدي، في المرزوقي، *شرح الحماسة*، جـ١، ص٤٠٣. الجنادع: الدواهي والأمور الشديدة.

(٤٧) هو طرفة. ينظر: طرفة بن العبد، *ديوانه*، ص١٦٩.

(٤٨) لأوس بن حجر. انظر: أوس بن حجر، *الديوان* (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص٨٤؛ وعبادة بن الوليد البحتري، *الحماسة*، تحقيق كمال مصطفى (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٢٩م)، ص٢٨٣. وفيه: لا أشتم... جاهلاً. أعتب: ألوم، أو أحقد عليه، من (العَتْب) وهو (المَوْجدة).

(٤٩) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٢٥. يُقْرف: يَذُمُّ (من قولهم: أقرف فلانًا وقع فيه وذكره بسوء) عن الفيروز آبادي، *القاموس المحيط*: (ق ر ف).

الشعراء يفخر بأن ابْنَ عمِّه في مأمنٍ من ملاقاةِ بطشٍ منه، وهو حتى إن حُمِل على تهديده فلن ينجزه، أما إن وعده شيئًا فسيُحَقِّقُ وعده:

وإني وإن أَوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ لأُخْلِفُ إيعـادِي وأُنْجِزُ مَوْعِدِي[٥٠]

ومن يُلِنْ جانبه لابن عمه ويَرِقَّ في مخالقته يمدحْ بذلك، كمدح أحدهم ابن عَمٍّ له بأنه لا (يستذئب) أي لا يلبس جلد الذِّئْب لابن عمه إن رآه في حاجةٍ إليه ماسَّةٍ، فليس كالذئب الذي إن رأى صاحبه جريحًا سائل الدم مال عليه فافترسه:

فتًى ليس لابْنِ العَمِّ كالـذِّئْبِ إن رأى بصـاحبِـهِ يَوْمًـا دمًـا فهـو آكِلُهْ[٥١]

ومن يَقْسُ على ابْنِ العَمِّ قَسْوَةً، وإن كانت دون ذلك بكثير، يَلُمْهُ الشعراء أقسى ملامٍ:

سَرِيعٍ إلى ابْنِ العَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَـهُ وليس إلى داعي النَّـدَى بسَرِيعِ[٥٢]

ومن مظاهر كَف الأذى عن ابن العم التي أعلى الشعراء شأنها عدمُ ظُلْمِه، ولاسيما حين يكـون أَذَلَّ من ابن عمه لأن يد المنون خطفت ناصريه ومؤازريه على حين ما فتيء ناصرو ابن عمه على قيد الحياة:

ولا أَظْلِمُ ابْنَ العَمِّ إن كان إخـوتي شُهُودًا، وقد أَوْدَى بإخوته الدَّهْرُ[٥٣]

ومنها عقل اللسان عن ذَمِّه والوقوع في عِرْضه. وقد نفى شاعر عن نفسه اغتيابَ ابن عمه (ولا أَكسِرُ في ابن العم أظفاري).[٥٤] وإفشاءُ عيوب الإنسان، ولاسيما الأدنى وابن

---

(٥٠) لعامر بن الطفيل؛ انظر: عامر بن الطفيل، *الديوان* (بيروت: دار بيروت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م)، ص٥٨؛ وابن منظور، *اللسان*: خبا.

(٥١) أبـو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري، *سمط اللآلي في شرح أمالي القالي*، تحقيق عبدالعزيز الميمني (القـاهـرة: لجنـة التـأليف والـترجمة والنشر، ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م)، ص٢٤٣؛ وعلي بن موسى بن سعيد الأنـدلسي، *نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب*، تحقيق نصرت عبدالرحمن (عـمان: مكتبـة الأقصى، ١٩٨٢م)، ص٧٩٣. والبيت ينسب لعـدة شعـراء وشاعرات منهم يزيد بن الطثرية.

(٥٢) عبدالقادر بن عمر البغدادي، *خزانة الأدب ولبُّ لُبَاب لسانِ العرب*، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، جـ٤، ص٤٨٨. والبيت للأقيشر الأسدي.

(٥٣) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢١٣.

(٥٤) ليزيد بن حبناء الخارجي، وصدره (لا أَقْرَبُ البيتَ أَحْبُو من مُؤَخَّرِهِ). انظر: إحسان عباس، =

العمّ، وكتمُ فضائله من سجايا الأوغاد، ولذلك وصف النسابة البكري رجالًا كانوا، كما قال، «إن رأوا» في ابن عمهم «حسنًا ستروه، وإن رأو سَيِّئًا أذاعوه»[٥٥] بأنهم «أعداء المروءة.»[٥٦]

أما مجابهة ابن العم بالشتم والفحش وهُجْر القول فشأن من الطبيعي أن يفتخر الشعراء ويمدحوا سواهم بتجنبه. وقد كرر حاتِمٌ عدم شتمِه ابْنَ عَمِّه: (وما مِن شيمتي شَتْمُ ابن عمي)؛[٥٧] (ولا أشتم ابن العم إن كان مُفْحما):[٥٨]

وقد كنت صَبَّارًا على القِرْن في الوَغَى وعن شَتْمِيَ ابْنَ العم والجَارَ وانيا[٥٩]

ومن عشرات النعوت التي وَسَمَتِ الخنساء صخرًا بها كَفُّهُ لسانَهُ عن شتم ابن عمه:

ولا يقومُ إلى ابن العَمِّ يشتمه ولا يَدِبُّ إلى الجارات تَخْويدا[٦٠]

وأسوأ الشتم ما كان من غير مدعاةٍ إليه أو موجبٍ له، لذلك ذَمّ الحادرةُ الفَزَارِيُّ زَبَّانَ بن سَيّار وقومَه بأنهم (مشاتيم لابن العَمّ في غير كنهه).[٦١]

أما العفة عن امرأة ابن العم فَحدِّثْ عنها ولا حرج، فإنها لَتُقْرن بامرأةِ الجار التي يُلِحُّ الشعراء على وجوب الحرص التام على الاستعفاف عنها:

ولا أُخَالِفُ جاري في حليلته ولا ابنَ عَمِّيَ غالتني إذَنْ غُولُ[٦٢]

= *ديوان شعر الخوارج* (بيروت، القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، ص١٠١.

(٥٥) محمد أحمد الراشد، *العوائق* (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص١٥٠.

(٥٦) الراشد، *العوائق*، ص١٥٠.

(٥٧) لحاتم؛ انظر: الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص١٥٩.

(٥٨) الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٣٨.

(٥٩) لمالك بن الريب. انظر: الأخفش الأصغر، *كتاب الاختيارين*، تحقيق فخر الدين قباوة (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٦٢٥.

(٦٠) الخنساء، *الديوان*، ص٤٠. تخويدًا: سيرًا سريعًا.

(٦١) قطبة بن أوس الذبياني الحادرة، *ديوان* شعره، تحقيق ناصر الدين الأسد (بيروت: دار صادر، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٣٩. كنهه: قَدْره.

(٦٢) لطفيل الغنوي؛ انظر: طفيل الغنوي، *شعر طفيل الغنوي والطرماح بن حكيم*، تحقيق ف. كرنكو (لندن: لوزاك، ١٩٢٧م)، ص٣١. وعن تأكيد الشعراء على العفة عن الجارة انظر مثلًا: محمد بن سليمان السديس، «معاملة العرب لجار البيت،» *مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود*

فالكرام لا يقتنصون غِرَّةَ ابْنِ عَمِّهم لفتنةِ امرأته أو خداعها:

ولا يُلْطَمُ ابْـنُ الـعَـمِّ وسط بيوتنـا ولا نَتَصَبَّى عِرْسَـهُ حينَ يَغْفُـلُ(٦٣)

٦ ـ إيواؤه وحمايته إن خاف

لئن كان إكرام ابنِ العمِّ وإعزازُه واجبًا رجوليًّا في الرَّخاءِ والسَّرَّاء، فإنه لواجب متأكد في الشِّدَّة والضرَّاء. فإن خاف فإن إيواءه من الواجبات المسَلَّم بها. وقد افتخر معقل بن خويلد الهذلي مؤكدًا أن بطون قبيلة خندف الكبرى كافة تعلم أنهم حصون لبني عمهم حين يحل بهم ما يلجئهم إلى البحث عن موئل:

وقـد علِمَتْ أَفْنَـاءُ خِنْـدِفَ أَنَّنَا إذا بلغَ المَـكْـرُوهُ كُنَّـا مَعَـاقِـلا

بَنِي عَمِّـنـا في كُلِّ يومٍ كَرِيهَـةٍ إذا قَرُبَ الأنسابُ عُمْرًا وكاهِلا(٦٤)

٧ ـ الأخذ بثأره إن قُتل

أما إن سُفِك دمُ ابْنِ العَمِّ فإن الانتقامَ من قاتِلِه لَتَبِعَةٌ واجبة وقعت على كاهل ابن عمه، ولا محيد عن حملها. وقد أبى أحد الشعراء قبول الدية من قاتل ابن عمه مُؤْثِرًا أخذ الثأر منه، فأبدى عدم طمعه في الإبل التي ستدفع إليه، وحَرَّم على نفسه أن يطعم دَرَّها أوَ أن يحتلبها، وراح يوازن بين ابنِ عمه الفقيدِ والإبلِ ليؤكد أن لا وجه للموازنة بينهما:

فلا تُطْمِـعَـنَّـا في الـدِّيَاتِ فإنـه حَرامٌ علينـا دَرُّهَـا واحْـتـلابُهـا

وإنَّ ابْـنَ عمِّ المـرءِ خيرٌ من الـتي تَبيتُ تَعَـاوَى بالفـلاةِ سِقَـابُهـا(٦٥)

= *الإسـلامـية*، ع٤ (رجب ١٤١١هـ/ فبراير ١٩٩٢م)، ص ص٢٤٩-٢٧٩؛ ومـرزوق بن صنيتـان بن تنبـاك، *الجوار عند العرب في الشعر حتى العصر الأموي* (القاهرة: دار المعارف، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، ص ص ٩٦ ـ ١٠٨.

(٦٣) لحاتم؛ انظر: الطائي، *ديوان شعر حاتم*، ص٢٣٢.

(٦٤) السكري، *شرح أشعار الهذليين*، ص٣٧٤.

(٦٥) هبـة الله بن علي بن حمزة بن الشجـري، *الحـماسة الشجرية*، تحقيق عبدالمعين الملوحي وأسماء الحمصي (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٧٠م)، جـ١، ص٢٠٥. سقابها: أولادها، جمع سَقْب، وهـو ولد البعير. والبيتان من شعرٍ لزياد بن منقذ الحنظلي، وينسب أيضًا لشعراء آخرين (انظر حاشية المحقق في الصفحة نفسها).

ثانيًا: معاناةُ الشُّعراءِ من مُعاداةِ بني عمِّهم وإيذائهم إيّاهم

على خلاف ما ترسمه النماذج السَّالفُ عرضها من صور إيجابية تنِمُّ عن حسن تعامُلٍ وتواصُلٍ بين بني العم، فإن بين أيدينا شعرًا كثيراً يُبرز جوانبَ سلبيةً في التعامل بينهم، وإن كان الموقفُ السلبيُّ، في الأغلب الأعمِّ، يقفه طرفٌ واحدٌ يشكو منه، عادة، الطرف الآخر.

وإن الشعر العربيَّ القديم ليكاد يرينا رأي العين أعدادًا من الرِّجال كل منهم يَعَضُّ على شفتيه، وفي حشاه أَلَمٌ مُمِضٌّ توشك جوانحه أن تَعْيَىٰ باحتوائه، من جَرَّاء موقفِ عداءٍ لا مُسوِّغَ له من ابن عمٍّ، وظلم الأقربين أَشَدُّ مضاضةً وأقسى وقعًا على المظلوم من ضربةٍ بهْنديٍّ باترٍ. وتُصادَفُ في هذا الشعر صورٌ عدَّةٌ لبني العم اللدودي العداوة، منها: ابنُ العَمِّ الشبيه بالخَبيث من الذئاب، الشديدُ المقتِ لابن عمه، حتى إنه لو وجد سبيلاً إلى إراقة دمه لما وَزَعهُ عن ذلك وازعٍ، وابن العم الذي أُتْرِعَ حشاه غيظًا ومَقْتًا لابن عمه فبات بصره لا يطيق النظر إليه حتى لَكَأَنَّ شعاعًا قويًّا من شمسٍ يَصُدُّهُ، وابن العم الذي ليس لديه لابن عمه أيُّ خير، وهو متقلب المزاج، لا يُدْرَى لغضبه سبب، كداءِ البطن (لا يُدْرى ماهو وما هاجه)،(٦٦) وابن العم الكثير الإيذاءِ لابن عمه، فابن عمه يتحاشىَ طَعَناتِهِ الموجعةَ تَحَاشِيَ الرَّجل أن تقع على أضلاعه رؤوس الأفاعي:

ومولًى كَذِئْبِ السُّوءِ لو يستطيعني ... أصاب دمي يومًا بغير قتيل(٦٧)

ومولًى كأَنَّ الشمس بيني وبينه ... إذا ما التقينا ليس ممن أعاتبه(٦٨)

ومولًى كَدَاءِ البطن لاخير عنده ... لمولاه إلا أن يعيب الأدانيا(٦٩)

وبعضُ المَوَالي تُتَّقَىٰ دَرَآتُهُ ... كما تَتَّقي رُوسَ الأفاعي الأضالعُ(٧٠)

(٦٦) عبدالله بن مسلم بن قتيبة، *كتاب المعاني الكبير*، تحقيق ف. كرنكو (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م)، ص٨٤٦.

(٦٧) نوري حمودي القيسي، *شعراء أمويون* (بغداد: المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)، جـ٣، ص٢٧٠. والبيت ليزيد بن الحكم الثقفي (أموي) في ابن عمه عبدالرحمن بن عثمان بن أبي العاص.

(٦٨) ابن قتيبة، *كتاب المعاني الكبير*، ص٨٤٥.

(٦٩) ابن قتيبة، *كتاب المعاني الكبير*، ص٨٤٦.

(٧٠) لكثير؛ انظر: كثير عزة، *الديوان*، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، =

ومن تلك الأصناف الرديئة لابن العم من يجازي الإحسان بالإساءة و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾؟ كابن عمٍّ للزِّبْرقان بن بدر يحسن إليه الزبرقان إن أَلَمَّتْ به مُلِمَّةٌ، لكنه يمنع عونه عن الزبرقان إن احتاج إليه، ويكفُّ الزِّبْرقانُ عنه أذاه فلا يكفُّ عنه أذاه:

وأُعِينُهُ في النائبا ت ولا يعين على النوائب:
تسري عقاربه إلـ ـيّ ولا تَنَاوَلُهُ عقارب[٧١]

ومثله ابْنُ عمٍّ لخالد بن علقمة بن عَبَدَة قد أَضَبَّ على غِلٍّ لابن عمه، فإن رآه قد ملك من حطام الدنيا شيئًا لم يسطع كبت كمده فارْبَدَّ وجهه، وبدت عليه سيما البَرَم حتى لكأن أنفه يُجْدَعُ، أو عينيه تُفْقآن، وقد أكل الحقد لحم وجهه كما يأكل الصخر براثِنَ الضَّبِّ حين يحفر كُدْيَتَهُ فيه، فَضَمَرَ وشَحَبَ، وبدا عليه أثر الشرِّ. وابن عمه (الشاعر) يغضي على وَخْزِ الإبَر عن عدائه وشرِّه، فَيَقْبَلُهُ على عِلاَّتِهِ ويداريه كما تُدَارَى سَاقٌ كسيرة لبثت أمدًا دون أن تَجْبُر:

ومَوْلًى كَمَوْلَى الزِّبْرقانِ دَمَلْتُهُ كما دُمِلَتْ ساقٌ تُهَاضُ بها وَقْرُ
إذا ما أحالت والجَبَائِرُ فوقها أتى الحول لا بُرْءٌ جَبِيرٌ ولا كَسْرُ
تراه كأنَّ الله يجدع أنفَهُ وعينيه إن مولاه ثَابَ له وَفْرُ
ترى الشرَّ قد أفنى دوائِرَ وَجْهِهِ كَضبِّ الْكُدَى أفنى أنامِلَهُ الحَفْرُ[٧٢]

ومثل هذا الأنموذج ـ لا كَثَّرَهُ الله ـ تكررت الشَّكاةُ منه على لسان شاعرٍ آخر ابْتُلِيَ بابْنِ عمٍّ مشحون الصدر بالضغن أيضًا فإن أثرى ابن عمه حسده، وإن مَسَّهُ ضيقٌ ذاتَ

= ١٣٩١هـ/١٩٧١م) ص٢٣٩. دَرَآته: جمع دَرْأَة، من الدَّرْءِ وهو الدَّفْع باليد.

(٧١) الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، *شعرهما*، تحقيق سعود محمود عبدالجابر (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص٣٦.

(٧٢) علقمة الفحل، *ديوان علقمة الفحل*، تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب (حلب: دار الكتاب العربي، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م)، ص ص١٠٩، ١١٠. ومولى كمولى الزِّبْرقان: أي ورُبَّ ابْنِ عَمٍّ كابْنِ عَمِّ الزِّبْرقان بن بدر الذي أومأنا إليه آنفًا. دَمَلْتُه: الدَّمْلُ: إصلاح ما فسد، ومعناها هنا صبرت عليه. تُهَاض: تكسر بعد أن جبرت. وَقْر: كسر. أحالت: أتى عليها حول. الجبائر: جمع جبيرة وهي العيدان التي تُشَدّ على العظم المكسور. ثاب له وَفْر: عاد إليه مال وغنى. يَجْدَع أنفه وعينيه: أراد (ويفقأ عينيه). الكُدَى: جمع كُدْيَة وهي الأرض الصلبة فيها حجارة.

يَدٍ لم يَمُدَّ له بعونٍ يَدًا تَنْعَشُهُ من لأوائه، وابن عمه، على هذا، يجنح إلى موادعته ومسالمته ويتحاشى معاداته حفظًا لحق القربى، وصونًا لرباطها، وإيقانًا بأن (بني العم يَدٌ على من عاداهم يَصُدُّ كُلٌّ منهم عن الآخر كيد عدوه):

ألا ما أرى رَأْيَ امْرِىءٍ ذي قَرابةٍ أبى صدْرُهُ بالضِّغْنِ إلا تَطَلُّعا
فسِلْمَكَ أرجو لاَ العداوةَ إنما أبوك أبي، وإنما صَفْقُنا مَعَا
فإن يُكْثِرِ المَوْلَى فإنَّكَ حاسِدٌ وإن يَفْتَقِرْ لا يُلْفِ عندكَ مَطْمَعا[٧٣]

ومن شيم بعض الناس أن يَلهُوا عن أقربيهم ومن يعرفون فلا يخطروا لهم ببالٍ ما لم تدفعهم الحاجة إلى أبوابهم دفعًا، فربما أبدَوْا آنَئذٍ نُزُوعًا إلى تَمْتين حِبَالِ صلتهم بهم وتوددوا إليهم. لكن ما إن يظفرون ببغيتهم حتى تعودَ إلى عِتْرِهَا لَمِيسُ، فينكصوا على أعقابهم إلى غَابِرِ حالهم من النأي بجانبهم عنهم وهجرهم. ولسنا نعدم تعبيراً عن معاناة الشعراء من وجود مثل هذه الفئة بين بني العم:

أنا ابْنُ عَمِّك ما نابَتْكَ نائِبَةٌ ولستُ منك إذا ما كَعْبُكَ اعْتدَلا[٧٤]
أراكَ إذا اسْتَغْنَيْتَ عنَّا هَجَرْتَنَا وأنت إلينا عند فقرك مُنْضَوِي[٧٥]

كما إن من شيم بعضهم أن يَغُلُّوا أيديَهُمْ عن نفع أقربيهم، بل وربما أساءوا معاشرتهم، وسددوا سهام أذاهم صوب صدورهم، بينما هم، في الوقت نفسه، يحسنون إلى الأباعد ويتفضلون عليهم:

وفي النَّاسِ من يَغشى الأباعِدَ نَفْعُهُ ويشقى به حتى المماتِ أقارِبُهْ
فإن يَكُ خيراً فالبَعيدُ يَنالُهُ وإن يك شَرًّا فابْنُ عَمِّكَ صاحِبُهْ[٧٦]

---

(٧٣) لغيلان بن سلمى الثقفي: انظر: الأصبهاني، *الأغاني*، جـ١٣، ص٢٠٢. صَفْقُنَا: ضَرْبُنا. والصَّفْقُ أيضًا ضرب الأيادي عند المبايعة.

(٧٤) أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، *الوحشيات*، تحقيق عبدالعزيز الميمني (القاهرة: دار المعارف، ١٣٥٨هـ/١٩٧٨م)، ص٩٢.

(٧٥) البغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص١٣٢. والبيت ليزيد بن الحكم من قصيدة سيرد الحديث عنها لاحقًا.

(٧٦) أبو تمام، *الوحشيات*، ص١٢٠. والشعر لحارث بن كلدة، ويعزى لغيره.

وفي الشِّعْرِ أَصْداءُ أُخَرُ لتجاربَ مريرةٍ من المعاناة قاساها رجال ذوو حسٍّ مرهف على أيدي بني عمهم كتجربة طَرَفَةَ مع ابن عمه الذي كلما تقرب إليه شِبْرًا نأى عنه باعًا، الذي ماكان ـ والعهدةُ على الشَّاعر ـ يَكُفُّ عن لومه وتأنيبه من غير مستوجِب ملامَة. وهو، في الوقت عينه، مُمْسِكٌ لا تَبِضُّ يَدُه بأهون ما يطلبه منه طرفة حتى استيأس منه وعَدَّهُ من أصحاب القبور. وطرفة، من جانبه، لا يقابل سلوكه تجاهه بسلوكٍ شبيه به، بل يرعى حق قرابته حتى في أحلك الساعات، وأضنك المواقف، حين يحيق العَدُوُّ به يرمون إيقاع الدَّاهِيةِ الدَّهْيَاءِ به. في مثل هذه الساعة العصيبة يلبي الشاعر صوت الصريخ والاستنجاد، ويهب لنداء واجبه، ونصر ابن عمه، باذلاً أغلى ما يملك: نفسه،والجود بالنفس أقصى غاية الجود. وهو يَذُبُّ عن عرض ابن عمه أيضًا أصلبَ ذَبٍّ وأجسره.

وبعد أن عاد لتكرار كثرة العذل الموجّه إليه من ابن عمه، وهو عذل ليس له من سببٍ وجيه، يختم حديثه بكلمةٍ حُبْلى بالصدق والواقعية تصور مدي ما يحسه ويعانيه ضحايا جَوْرِ الأقرباء: إن ظلم الأدنين لأكثر إيجاعًا (حتى) من معاناة القتل!

فمالي أراني وابْنَ عمِّيَ مالِكًا ... متى أَدْنُ منه يَنْأَ عني ويَبْعُدِ
يَلُومُ وما أدري علام يَلُومُني ... كما لامني في الحيِّ قُرْطُ بْنُ مَعْبَدِ
بلا حَدَثٍ أحدثْتُهُ وكَمُحْدِثٍ ... هِجائي وقَذْفي بالشَّكَاةِ ومُطْرَدِي
وأيأسني من كلِّ خيرٍ طلبْتُهُ ... كأنَّا وضعناهُ على رَمْسِ مُلْحَدِ
وقرَّبْتُ بالقربى وجَدِّكَ إنني ... متى يك عَهْدٌ للنَّكيثَةِ أَشْهَدِ
وإن أُدْعَ للجُلَّى أَكُنْ من حُمَاتِها ... وإن يأتك الأعداءُ بالجَهْدِ أَجهدِ
وإن يَقذفوا بالقذع عِرْضَكَ أَسْقِهِمْ ... بِشُرْبِ حِيَاضِ المَوْتِ قبل التَّهَدُّدِ
وظلمُ ذوي القُرْبَى أَشَدُّ مضاضَةً ... على المَرءِ من وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ(٧٧)

وكتجربة المُقَنَّع الكِنْديِّ مع بني عمه الذين كانوا (يحسدونه ويأتمرون العداوة والغواية له، وهو يصابرهم ويجاملهم)،(٧٨) ويقابل كل شائنة تبدر منهم تلقاءه بخلافها تمامًا من مجيد الفَعَال. وقد نفث لسانه أبياتًا عذبة شهيرة، في الغاية من شرف المضمون، رسم فيها الصورة المثلى للرجل الكامل في تعامله مع أقربائه، على دوام إيذائهم له وتنوعه، فقال: إن

(٧٧) طرفة بن العبد، *الديوان*، ص ص٣٧ـ٤٠.

(٧٨) المرزوقي، شرح *الحماسة*، ص١١٨٠.

شَأْنَيْنَا (على طَرَفَيْ نقيض) فإن اغتابوني أمسكت لساني عن أن ينطق فيهم بعَوْراء، وأبقيت أعراضهم موفورةً، وذكرَهُم حسنًا، (وإن سعوا في نقض ما أبرمته من مسعاةٍ كريمة، وهدم ما أسسته من خطةِ مجدٍ عليَّةٍ، جازيتهم بابتناء شرفٍ لهم مُستحدثٍ، وإعلاءِ شأنٍ لهم مستأنفٍ، وإن أهملوا غيبي فلم يراعوه بحسن الدفاع عنه)[٧٩] انبريت للدَّفْع عنهم، وإن وَدُّوا لي الضَّلالة والغواية، أو الشَّرَّ والشؤم تمنيت لهم الرُّشْدَ والإصابة واليُمْن.

وإضافةً إلى هذا، فإن لهم مما أصيبه من خير أَوْفَرَ حظ وأَجْزَلَهُ: فإن أَيْسرْتُ وأصبت غنًى عاد إليهم معظمُ مالي، أما إن عضَّني الدهر بنابه فلا أُثْقِلُ عليهم حتى بطلب أَقلِّ القليل من العطاء.

ثم ختم نشيده النبيل المعبر عن التضحية الفريدة خاتمة أثبت فيها لنفسه الرياسة عليهم.[٨٠] فعلى كل ما فَصَّلَ ذكره من صنوف إساءاتهم إليه فإنه لا يُكِنُّ في قلبه موجِدةً عليهم فمتى (استعطفوه عطف عليهم، وإن استقالوه أقالهم وأسرع الفَيْئَةَ لهم، غير حاملٍ الضِّغْنَ واللَّجَاج معهم، ولا معتقدا انتهاز الفرص فيهم)[٨١] حقدًا عليهم؛ لأن (نبذ الحقد والضغينة من شروط الرياسة)،[٨٢] ولو حمل (لهم ضِغْنًا) لما كان (قَمِنًا برياستهم):[٨٣]

وإن الـذي بيني وبـين بني أبي ... وبـين بني عمـي لمختـلفٌ جدًّا
فإن يأكـلوا لحمي وفَـرْتُ لحومـهم ... وإن هَدَمُـوا مجدي بنـيتُ لهم مجدا
وإن ضَيَّعـوا غيبي حفـظت غُيُوبَهُم ... وإن هُمْ هَوَوْا غَيِّي هَوِيْتُ لهم رُشْـدا
وإن زَجَـرُوا طَيْري بنَـحسٍ تَمُرُّ بي ... زجـرت لهم طَيْرًا تَمُرُّ بهم سَعْـدَا
لهم جُلُّ مالي إن تتـابـع لي غِنًـى ... وإن قلَّ مالي لم أُكَـلِّفْـهُـمُ رفْـدَا
ولا أَحْمِـل الحِقْـدَ القـديمَ عليهمُ ... وليس رئيسُ القـومِ من يَحْمِـلُ الحِقْدا[٨٤]

(٧٩) المرزوقي، *شرح الحماسة*، ص١١٨٠.
(٨٠) ينظر المرزوقي، *شرح الحماسة*، ص١١٨٠.
(٨١) المرزوقي، *شرح الحماسة*، ص١١٨٠.
(٨٢) المرزوقي، *شرح الحماسة*، ص١١٧٩.
(٨٣) المرزوقي، *شرح الحماسة*، ص١١٧٩.
(٨٤) المرزوقي، *شرح الحماسة*، ص ص١١٧٩ - ١١٨٠.

هذه المضامين الخُلُقيَّة الرائعة التي تَغنَّى بها المُقنَّع (الذي عاش في العصر الأموي) رسم بها صورة الإنسان الذَّاني من الكمال، المهيمنِ على انفعالاتِه وعواطفه فلا تجيش، بل يكبح جماحها، ويروِّضها ويطوعها، فَيَقْسِرُها على سلوك سبيل المروءة الحقيقة. . . تلك السبيل النادرة السالكين، وهي صورة تمثل المِثال الإسلاميَّ الأعلى للتعامل مع ذوي الرَّحِم، فلا ريب أن المُقَنَّع قد قبس من ضوءِ شعلة السنة النبوية الوهّاج حيث التأكيدُ في غير ما نَصٍّ على أن (الواصِلَ) ليس (بالمكافِىءِ) وإنما (مَنْ يَصِل مَنْ قَطَعَه) من أقربيه، وأن الذي يحسن إلى المسيئين إليه منهم فكأنما يُسِفُّهُم (المَلَّ): التُّرابَ الحار.

ومثل تجربة ذي الإصبع العدوانيّ مع ابن عمه الذي كان كثير الإيذاء له بعيبه على رؤوس الأشهاد، والانتقاص من قدره، والوشاية به، وذو الإصبع يقف موقفًا مغايرًا لموقفَيْ طَرَفَةَ والمُقَنَّع، فإذا كانا يقابلان عِداءَ بني عمهما، وإن استاءا منه، بالتحمل والتصبر والتَّغاضي بل بالإحسان الغامر، كما عند المقنَّع خاصة، فإنَّ ذا الإِصْبَع يُبْرِق ويُرْعِدُ مهدِّدًا ابن عمه بأقسى عقاب، وهو القتل، إن لم يَكْفُفْ قوارص كلامه عنه. ويأخذ في ذمه مبديًا قلة خيره للشاعر، فهو لن ينقذ بنيه من موتٍ محقق إبّان مجاعة لو حدثت، بل إنه حتى لا يستغني عند الحاجة والشدة عن عون ذي الإصبع، ويتساءل عما يدعوه للتعالي على ابن عمه وهو ليس أفضل منه حَسَبًا، ويأبى على ابن عمه ممارَسَةَ وصايته عليه.

ثم يَشْرَعُ في التَّعريض بابن عمه وهجائه تعريضًا وهجاءً متلفِّعَيْن برِدَاءِ الافتخار إذ يَنْعتُ الشاعرُ نفسهُ بِنَعْتٍ، وهو في الواقع، يرمي إلى سلخِهِ ضِمنيًّا عن ابن عمِّه، أو نعتِهِ بنقيضِهِ في الدلالة. . . كقوله: «بابي لايُغْلَقُ في وجهِ الزائر والضَّيف، ولا أُمُنُّ بما تجود به يدي، ولاينطلق لساني بهُجْرِ القول على أَقْربيَّ. . . وما أنا بابْنِ أَمَةٍ ترعى الإبل، ولست بواهِنِ رأيٍ أو مُفَنَّدِ عقل.»

ثم يقول إن الذِّئابَ، وإن ارْتَدَتِ الثِّيَابَ، لن تُبَدِّل طباعها، وكلُّ ذي طبعٍ رديءٍ، وإن تخلَّى عنه، سيعود إلى ما فُطِرَ عليه في آخر الأمر، لا محالة.

يا عمرُو إلَّا تَدَعْ شتمي ومنقصتي	أَضْرِبْكَ حتى تقولَ الهامةُ: اسْقُوني
لاهِ ابْنُ عمِّك لا أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ	عَنِّي، ولا أنتَ دَيَّاني فَتَخْزوني
ولا تقوتُ عيالي يوم مَسْغَبَةٍ	ولا بنفسك في العَزَّاءِ تكفيني
إني لَعَمْرُك ما بابي بذي غَلَقٍ	عن الصديقِ، ولا خيري بِمَمْنُونِ

ولا لسـاني على الأدنى بمنطلقٍ بالفاحشاتِ، ولا فتكي بمأمونِ
عنّي إليكَ، فما أُمّي براعيةٍ ترعى المَخاضَ، وما رأيي بمغبونِ
كل امرئٍ راجعٌ يومًا لشيمتِهِ وإن تَخَلَّقَ أخلاقًا إلى حينِ(٨٥)

لكنه، وإن هجا ابن عمه هجاءً قارصًا تحت دِثارِ الافتخار، تباهى بالعديد من جميل الخصال كالجرأة والفتك بحيث لا يأمن العدوُّ بطشه، والعفةِ وكرمِ النّفس بحيث لا يطمع فيما في يد غيره، والإباءِ المتأصل الموروث عن الآباء بحيث لو ألفى نفسه عرضةً لإذْلالٍ في مكانٍ لم يقبل الإذعان له، بل يتصدى له، أو ينأى عنه.

ثم يعود لتهديد ابن عمه وقومه بتَحدٍّ شديد، وفي الوقت نفسه يمدُّ لهم يَدَ الموادعة والوئام، فإن أبوا إلا معاداته فإنه متهيىءٌ لذلك ولن يلومَهُ أحدٌ على أن عاقب بمثل ما عوقب به.(٨٦)

أما القُحَيْفُ العُقَيْليُّ فاشتكى من حسد بعض بني عمه، وهو حسد أثاره صيتُهُ الحسن الذي ذهب في الأرض، ولم يثره جُرْمٌ جناه، وقد باح بتوجعه من هذا الحال:

متى ما تُحِطْ خُبْرًا بنا يا ابْنَ عاصمٍ تجِدْ لي رجالاً من بني العَمِّ حُسَّدَا
ومـا ذاك عن ذَنْبٍ إليهمْ جَنَيْتُهُ سوى أنَّ ذِكْرًا لي أغارَ وأَنْجَدَا(٨٧)

ومن نكد الدنيا على الحُرِّ، وتكديرها صفو عيشه، أن يُلْفِيَ نفسه غَرَضًا لنبال من غمر بإحسانه، فلم يَكْفِهِ نكرانُ الجميل بل تعمّد خَصَّهُ بالإيذاء وتنغيص حياته. وإن كان هذا الغامط الجاحد ابْنَ عمٍّ فذلك أَشَدُّ وأنكى. وممن عانى مثل هذه التجربة ووصف معاناته يزيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي إذ ابْتُلِيَ بابْنِ عَمٍّ له لَقِيَ منه ما لايطاق فلم

(٨٥) المفضَّل بن محمد يعلي الضبي، *المفضّليّات*، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣م)، ص١٦٠.

(٨٦) ينظر: الضبي، *المفضليات*، ص ص١٦٠، ١٦١ من قوله: (ولا لساني على الأدنى . . .) حتى آخر القصيدة.

(٨٧) انظر: محمد بن سلام الجمحي، *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود شاكر (القاهرة: د. ن.، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م)، ص٧٩١. وابن عاصم هو ابن عاصم العقيلي، أحد قواد أسد بن عبدالله القسري. وقال القحيف الشعر لّما زعم ابنُ عمٍّ له لإبراهيم بن عاصم أن القحيف هجاه (ليحرمه ويقصيه ففعل). عن ابن سلام، *طبقات*، ص٧٩١ وحاشية المحقق.

يُطِقْه،(٨٨) فَعرض ألوانًا من مظاهر سلوكه نحوه،(٨٩) عاتبًا عليه عتابًا مرًّا، بل لائمًا إيَّاه لومًا شديدًا، ثم هاجيًا وكاشفًا معايبه وذميم خلاله.

إن ابن عمه هذا إذا لقيه كَشَرَ له عن أنياب الصديق الوادِّ الناصح، لكنْ شاهدُ البُغْضِ اللَّحْظُ، فإن الشاعر قرأ في لحظه ما لم يَفُهْ به في لفظِهِ مما طوى على أحناء صدره من ضغنٍ كمين. كان يعطيه من طرفِ لسانِهِ كلماتٍ حُلْوَات لِطافًا، فإذا لم تره عينُهُ سَلَقَهُ بلسانٍ حديدٍ، وكان موصولَ الأذى إليه، مكفوفَ الخير عنه، فأبدى الزمانُ لِيَزيدَ ما كان جاهلاً من مَوْجِدَةٍ طالما أخفاها ابن عمه مظهرًا خلافها:

تُكَاشِرُني كُرْهًا كأنك ناصِحٌ وعَيْنُكَ تُبْدي أَنَّ صَدْرَكَ لي دَوي(٩٠)
لِسَانُك لي أَرْيٌ، وغَيْبُكَ عَلْقَمٌ وشَرُّكَ مَبْسُوطٌ وخيْرُكَ مُلْتَوي(٩١)
بَدَا مِنْكَ غِشٌّ طالما قد كَتَمْتَهُ كما كَتَمَتْ دَاءَ ابْنِها أُمُّ مُدَّوي(٩٢)
فليت كَفَافًا كان خَيْرُكَ كُلُّهُ وشَرُّكَ عني ما ارْتَوَى الماءَ مُرْتَوي

لقد بات الشاعر بعدما اطلع على ما يُكِنّه له ابن عمه لا يطمع منه في خير، بل إنَّ أقصى ما يتوق إليه أن يكون حاله كفافًا لا شرَّ يأتيه من قِبَلِهِ ولا خير، ويتمنى أن يكون هذا حاله ما دام للماء شاربٌ وللزَّيْتِ عاصر.

---

(٨٨) واسم ابن عمه عبدالرحمن بن عثمان بن أبي العاصي.

(٨٩) وذلك ضمن قصيدة واوية أورد بعض أبياتها أبو علي القالي في *الأمالي*، تحقيق محمد عبدالجواد الأصمعي (القاهرة: دار الكتب، ١٩٥٣م)، جـ١، ص٦٨؛ والأصبهاني، *الأغاني*، جـ١٢، ص ص٢٩٥ ـ ٢٩٦؛ وأوردها أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي في *المسائل البصريات*، تحقيق محمد الشاطر أحمد محمد أحمد (القاهرة: مطبعة المدني، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص ص٢٨٥ـ٢٩٣؛ وعنه أثبتها صاحب *الخزانة* في جـ٣، ص ص١٣٢ ـ ١٣٣. وعليهما اعتمدنا، على أنا لم نلتزم بترتيب الأبيات فيهما من أجل توحيد ذوات المعنى الواحد أو المتشابه بعد تشتتها.

(٩٠) تُكَاشرني: تبدي أسنانك لي مبتسمًا ابتسامةً مصطنعة. دَوِي: سقيم، من (الدَّوَى) وهو العلة والسقم. وانظر البكري، *السمط*، ص٢٣٨.

(٩١) أَرْي: عسل. وفي *الأمالي*: (لسانك ماذِيٌّ وعينك علقم). والماذيّ: العسل أيضًا.

(٩٢) أم مُدَّوي: (المُدَّوِي: من يأخذ الدواية وهي جلدة رقيقة تركب اللبن)، وأم مُدَّوي: امرأة من العرب جاء ابنها وعندها أم خِطْبِهِ (أي الفتاة التي خَطَبَ إليها) فقال: يا أماه أَدَّوي؟ فقالت: «اللِّجَامُ مُعَلَّقٌ بعمود البيت» تُوَرِّي بذلك وتُرِي أنه إنما سألها عن اللجام وأنه صاحبُ خَيْلٍ =

والصورة صورةُ ذي الوجهين المُدَاجي المألوفةُ، وهو هنا مُدَاجٍ ممتلئُ الصدر ـ والعياذ بالله ـ من الغيظ حتى يكاد يذوب، ومن رآه مُسْوَدَّ اللَّوْن مهزولاً خاله عليلاً، وأشار عليه بالتماس الشفاء بالاكتواء، وحتى مَهَرَةُ الأطباء حسبوه مبتلًى بداءِ سِلٍّ بَرَى جَسَدَهُ، وإنما بَرَاهُ حَسَدُهُ، وقد بلغ به بُغْضُ ابن عمه أنه يتمنى أن تلدغه أفعى تَرْشَحُ بالسَّمِّ لدغة لا يَرْقَأُ سَليمُها فلا تقوم له منها قائمة:

تَمَلَّأتَ من غيظٍ عليَّ فلم يَزَلْ ... بك الغيظُ حتى كِدْت بالغيظ تنشوي

فما بَرِحَتْ نفسٌ حَسُودٌ حُشيتَهَا ... تُذيبُكَ حتى قِيل: هَلْ أنت مُكْتوي

وقالَ النِّطَاسِيُّونَ: إنك مُشْعَرٌ ... سُلَالاً. ألا بل أنتَ من حَسَدٍ جَوي

نَدَاكَ عن المَوْلَى ونَصْرُكَ عاتِمٌ ... وأنت له بالظلم والعُمْر مُخْتَوي

تَوَدُّ له لو نالَهُ نَابُ حَيَّةٍ ... رَبيبُ صَفَاةٍ بين لِهْبَيْنِ مُنْحَوي[٩٣]

أما إن شرع الشاعر في إنجازٍ مَجيدٍ يعود بنفعٍ جَلَلٍ فإن ابن عمه لا يكفُّ عنه عونه وحسب، بل يتمنى له الإخفاق والخيبة. وإن طرق سمعَهُ حديثٌ عن نُجْحِ ابن عمِّه تغشاه من الأسى والغمِّ ما يجعله يبدو كسقيمٍ أضناه داءُ الإعْيَاءِ بحيث لا يقوى على القعود ما لم يُعَمَّدْ بالوسائدِ من يمينٍ وشِمَال:

إذا ما بنى المَجْدَ ابْنُ عَمِّك لم تُعِنْ ... وقلت ألا يا ليت بنيانَهُ خَوي[٩٤]

كأنك إن قيل ابْنُ عمِّك غانِمٌ ... شَجٍ أو عميدٌ أو أخو مَغْلَةٍ لَوِي[٩٥]

وهو يتعمد، إغاظةً لابن عمه، التَّوَدُّدَ إلى أي شخص يلقاه بينه وبينه عداءٌ فيتلقاه

وركوب. انظر: أبا علي القالي، *الأمالي*، ص٦٨؛ والبغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص١٣٩.

(٩٣) مُشْعَرٌ: مُلْبَسٌ شِعارًا، وهو ما وَلِيَ الجسد من الثياب. سُلَالاً: سِلًّا. جَوي: من الجَوَى، وهو داءٌ في القلب. عاتمٌ: بَطِيء. الغُمْر: الحقد والغِلّ. مُخْتَوي: جائر. لِهْبَيْن: اللِّهْب: الشِّقّ في الجبل، ومثله اللِّصْب. مُنْحَوي: مجتمِعٌ، مستدير.

(٩٤) خَوي: سَقَط.

(٩٥) شَجٍ: حزين، مهموم. عَميد: مريض لا يستطيع الجلوس فَيُعَانُ بالوسائد. أخو مَغْلَة: صاحب مَغْلَةٍ وهي عِلَّة تكون في الجوف. لَوِي: اللَّوِي من يَلْتَوِي مصيره. وانظر: البكري، *السمط*، ص٢٣٩.

بالـتِّرْحـاب الحـارّ، ويبدي له البِشْرَ، ويكثر من مصافحته، ويكشف له عن دقيق أمره وجليله. وفي الوقت عينه يتجهم لابن عمه، إن لقيه، فيزوي ما بين عينيه مُقَطِّبًا جبينـه، كما يتباعد عن كل من تقوم بينه وبين ابن عمه علاقة وُدٍّ وتَصَافٍ. بل إنه ليتعمد خلاف الشاعر في كل صغيرة وجليلة، فينفُرُ من كل ما يميل إليه ابن عمه، ويؤثر ما لا يَقْبَلُهُ على سواه:

تُصـافِـحُ من لاقَيْتَ لي ذا عَدَاوةٍ صِفَـاحًا، وعني بَيْنُ عينيك مُنْزَوي
تفـاوض من أُطْـوي طَوَى الكَشْـحِ دُونَهُ ومن دُونِ مَنْ صافَيْتُـهُ أنت مُنْطَوي
أراك إذا لم أَهْـوَ أمـرًا هَويتَـهُ ولَسْتَ لما أهوى من الأمر بالهَوي[٩٦]

هذا المضامين الواشية بالجوانب القائمة في صورة العلاقة (البَنِيعَمِّيَّة)، إن قبل هذا المصطلح، لا غرابة فيها، وإن أدهشت، بسبب كثرتها لأول وهلة، ذلك لأن عدم التصافي بين الأقـربين لا يبدو أنه كان ظاهرة شديد الندرة،يوحي بذلك تأكيدُ الوحيين الكريمين كليهما على صلة الرحم، وترغيبهما المسلم أيما ترغيب فيها، وتنفيرهما، من ناحية أخرى، من قطيعتها، وعَدُّ قطيعتها من الذنوب الكبرى. ويبدو أن مِن أسباب هذا الاعتناءِ الرَّبَّانيِّ بالرَّحِم الحَدَّ من نزوع بعض النفوس إلى مجافاة الأدْنَين منها نَسَبِيًّا.

ثالثًا: موازنة استنتاجية

تتألف المادة التي عالجتها هذه المقالة من شعر جاهلي ثابت النسبة، وشعرٍ مقول بعد الإسلام (من العصر الأموي في معظمه)، وشعرٍ مختَلَفٍ في نسبته بحيث يستعصي القطعُ بقولٍ فَصْلٍ عن عصره. أما القسم الأخير فاسْتُبْعِدَ عن هذه الموازنة، وأما القسمان الأول والثاني فهي حولهما تدور.

المتبادرُ إلى الذِّهْن أن اختلاف التَّصَوُّرَيْن للعلاقة بابن العَمِّ بين الشعر الجاهليِّ وشعر ما بعد الإسلام هو القاعدةُ لا الاستثناءُ، نظرًا لأنهما صادران عن ذهنِيَّتَيْنِ مختلفتين، فبعد الإسلام، كما نعلم جميعًا اعترى كثيراً من القيم والممارسات والعادات السائدة قبله التبديل والتعـديل، ووُضِعت ضوابطُ لبعضها، وأُبْطِلَ بعضٌ، ومن الضرب الأخير ما هو وثيق

---

(٩٦) بَيْنُ عينيك: بَيْنُ هنا اسمٌ، لا ظَرْفٌ، فهو مرفوعٌ على الابتداء. مُنْزوي: منقبض. تُفاوِض: مضارع (فاوَض) فلانًا، أي أظهر له أمره. ينظر: البغدادي، *الخزانة*، جـ٣، ص١٣٥.

الصلة جدًّا بموضوعنا كالعصبية العِرقية. ونمت العقلية العربية، وارتقى الفكر وسما بعد نزول القرآن، فبعد أن كانت علاقاتُ العربيِّ الأُسَرِيَّةُ والقَبَلِيَّةُ تدور في حيِّز دائرة ضيقة، اتسع بعد الإسلام نطاق تلك العلاقات ليخرج عن سور العصبية إلى رحاب (صلة الرحم) المنـزهـة عن الميل العاطفيِّ الأعمى للقريب لمجرد قرابته، كما اتسع ليضم علاقاته بأمة إسلامية تتحد فيها الأجناس والأعراق والألوان، وتَحِلُّ أخوة الدين والتقوى محل الانتماءات العشائرية والقبلية وما شاكلها. لكن المتلمس لعناصر الالتقاء والافتراق بين النظرتين إلى العلاقة بابن العم، لِيَرَى إلى أيِّ مَدًى تصل دقة هذه الفَرَضِيَّة، يجد ما لا يسندها، بل يَتَبَدَّى له تماثل النظرتين تجاه العلاقة بابن العم وقضاياها، ومواقفِ الشعراء حيال كثير من النقاط سواءً الكلي منها أو الجزئي، وهو تماثُلٌ وتشابُهٌ مُوحٍ بقوة الشعور بالانتماء الأُسَرِيّ والقَبَلِي، وتأصل جذوره في نفوسهم بحيث يقودهم إلى أن يقفوا المواقف القديمة نفسها في كثيرٍ مَن الأحوال، وهو مُوحٍ أيضًا بتمجيد الشاعر الجاهلي لبعض القيم التي أقرها الإسلام الذي جاء ليتمم مكارم الأخلاق، ككف الأذى عن ابن العم المنضوي تحت تجنب قطيعة الرحم، وذلك مما ضيَّقَ شقة الاختلاف بين المضامين الجاهلية والإسلامية في هذا الموضوع.

ومما أنتج هذا التلاقي والتماثل في الفكرة والمضمون لدى الفئتين محاكاة كثير من الشعراء الإسلاميين للنصوص التي أبدعها فيهما سابقوهم في الجاهلية، كما هو الشأن في كثير من مضامين الشعر القديم وصوره وموضوعاته، بل وحتى قوالب الصياغة اللفظية فيه، ونظام القصيدة، وغير ذلك من أمورٍ ينسجون على منوالها، ويخالون أنهم كلما قاربوها فيما يبدعون أجادوا.

لقد تجلى من المادة محل الدرس أنه حتى بعض المضامين الشعرية التي ربما حُسِبت إسلامية خالصة تشترك الفئتان فيها، ومنها معنى التجمل والإحسان لابن/ بني العم في مقابل إساءته/ إساءتهم. هذا المعنى طرقه غير واحدٍ من شعراءِ ماقبل الإسلام كأوس بن حَجَر:

ألا أَعْتِبُ ابنَ العَمِّ إن كان ظالمًـا وأغفـر عنـه الجهـل إن كان أجهلا

وحاتم: (ولا أخذل المولى وإن كان خاذلا) و(وإن كان محنيَّ الضلوع على غُمْر)، وعُبَيد السلامي: (ولو بلغتني من أذاه الجَنَادع) ـ (وأحفظ غيبه ليسمع أني لا أجازيه سامع). كما طرقه من الإسلاميين المُقَنَّع الكندي.

ومنـه معنى (إمطار ابن العم بسيل من ألوان الإكرام والإحسان) الذي تَضَوَّعُ به قصيدة المقنع أيضًا، فقد طرقه الشاعر الطائي الهذيل بن مشجعة، أو عمرو بن النَّبيتِ، أو غيرهما من شعراء طيىء في الأبيات:

إني وإن كان ابْـنُ عَمِّـيَ غائبًـا لَمُقَـاذِفٌ من خَلْفِـهِ ووِرائِـهِ

. . . إلى آخرها.

هذه المقـطوعـة، وإن فاقتها قصيدة المقنع في الجودة الفنية، ترسم صورة للتعامل الأمثل مع ابن العم لا تختلف عما يمكن أن يصدر عن أي شاعرٍ مسلمٍ مستنيرٍ بالدِّين، مسترشِدٍ بهديه، مما يلقي ظلالاً من الشك على صحة نسبتها، أو صحة نسبة بعض أبياتها، على الأقل.

ومن الغريب، بالمناسبة، أن قصيدة المقنع، على إسلاميتها المهيمنة، وثبات صحة نسبتها، تأخذك على غرة لتنكص بك إلى ما قبل الإسلام حين توظف آبدة (زجر الطير أو الوحش) للتيمن أو التشاؤم بالسانح منها أو البارح، على اختلافٍ بين الناس في ذلك، وهي آبدةٌ وُئدت في الإسلام فيما وُئِدَ من مآثر الجاهلية. إن توظيفها على هذا النحو القويِّ بلسان شاعر مسلم لشأن يسترعي النظر. لكن الاستغراب يتلاشى مع تذكرنا المحاكاة التي أشرنا إليها آنفًا من جانب الشعراء الإسلاميين، وبخاصة في العصر الأموي، للنماذج الأقدم التي يعدونها أمثلة مثالية ينبغي احتذاؤها حتى في المعاني الجزئية الصغيرة، التي إن لاءمت الروح الجاهلية، فهي ناشِزَةٌ في شعر ما بعد الإسلام.

أما افتراق نظرة شعراء الجاهلية عن نظرة شعراء الإسلام حول العلاقة بابن العم فيتجلى في نص ذي الإصبع العدواني، حيث تصطبغ لهجته بالعدوانية العنيفة، وتشيع فيه روح الاعتداد بالنفس والكرامة اعتدادًا مبالَغًا فيه، كما يصْطَبِغ بدرجة قصوى من الصرامة نحـو ابن العم المؤذي، والتلويح بالعصا، بل بالسلاح في وجهه (وما فتكي بمضمون ـ أضرِبْكَ حتى تقول الهامة اسقوني)! والتصريح بإمكانية سفك الدماء بين الجانبين:

لو تشربون دمي . . . البيت

والتهديد المبطَّن (وإن جهلتم سبيل الرشد فأتوني)! والتأكيد الشديد على صفة «إباء الضيم» اتكاءً على التكرار:

إنـي أَبِـيٌّ أَبِـيٌّ ذو محافَـظَـةٍ وابْـنُ أَبِـيٍّ أَبِـيٍّ مـن أَبِـيِّيْـنِ

والتهيؤ للتصدي لابن العم وأقربيه المعادين مهما كان عددهم بتَحَدٍّ عنيد:

وأَنْـتُـمُ مَعْشَرٌ زَيْدٌ على مائَـةٍ فأَجْمِـعُـوا أَمْـرَكُـمْ كُلاًّ فَكِيدُوني

ويضاف إلى ذلك كله التهجم الهجائيُّ الساخر سخرية مريرة لاذعة بابن العم، والانتقاصُ منه، وسلخُ كل ما يَمُتُّ إلى الفتوة والمروءة الحقيقية بِمَاتَّةٍ عنه.

هذه الأشياء مجتمعةً لا تُخْفِقُ في وسم القصيدة بسمة جاهلية تميزها عن الشعر الإسلاميِّ، وإن لم تَخْلُ، إلى جانب التلويح بالعصا، بل بالسلاح، كما سلف، من تلويحٍ، وإن خفيفًا، (بالجَزَرَةِ)، عبْرَ نغمةِ الملاينة والميل إلى الموادَعَة إن جنح لها ابن العم المعادِي (ولا أَلِين لمن لا يبتغي لِيني) الموحية باحتمال حدوث اللين من جانب الشاعر عند توافر الرغبة فيه لدى (الآخر) أو الضِّدِّ (ابن العم).

وهنالك نقطة اختلافٍ أخرى بين النظرتين تتمثل في الموقف الجاهلي المعلوم القائم على العصبية والحمية الجاهلية، وهو نصرة الأقرب على غيره، وإن لم يك الحق في جانبه... هذا الموقف يقفه حاتم، فقد قال إنه لن يضايق ابن عمه وإن كان جائرًا.

ومما سلف يتجلى عدم دقة الفرضية المذكورة في صدر هذه الموازنة ومؤداها «أن اختلافَ التصورين بين الشعر المقول قبل الإسلام والشعر المقول بعده حول أمور العلاقة بابن العم هو القاعدةُ لا الاستثناء،» وتبين أن اختلافهما هو الاستثناءُ لا القاعدة.

الخلاصة

أوحت المادة التي قامت عليها هذه المقالة بما يلي:

١ ـ قد تكون العصبية لابن العم عصبية للعشيرة/ القبيلة/ الحي/ العمارة... إلخ بأسرها؛ لأن مصطلح «ابن العم» ربما أريد به أيُّ فرد منها، كما قد يكون معلومًا.

٢ ـ ثمة نزوعٌ إلى حسن التعامل مع ابن العم قبل الإسلام، وهو نزوعٌ يتلاقى مع مفهوم «صلة الرَّحم» التي أرساها الدين الإسلامي الحنيف. ومن الطبعي أن الأسوياء في كل أمة أو جنسٍ ميالون بطبيعتهم إلى إحسان التعامل مع غيرهم، ولاسيما أقربيهم، وخاصة أدنى أولئك الأقربين إليهم نَسَبًا. وهذا الإحسان ينبىء عن تقديرٍ لِوَاشِجَةِ القربى، ولا يصل عند العقلاء إلى الحمية الجهلاء، والعصبية العشواء التي فطن إلى سوئها الأَلِبَّاء فحذروا أقوامهم منها. فقال الأحنف بن قيس، على سبيل المثال، مخاطبًا قومه بني تميم:

«إيَّاكُمْ وحَمِيَّةَ الأَوْقاب.»(٩٧)

على أن ما تشي به بعض النصوص من تفشي «ظاهرة التعادي بين بني العم،» كما ذُكر سالفًا، يوحي بأن التآزر بينهم لم يكن بالشأن السائد سيادةً عامَّةً على النحو الذي تؤشر إليه نصوصٌ أُخَر، وأن الواقع المَعِيش بين بني العم يتمخض عن إحَنٍ وعداوات، فتظل دعوى التعاطف والتعاضد، في حالات غير قليلة، في الجانب النظري الذي لا يصدقه واقع الحال. على أن الامتعاض والتبرم الناضحَ مرارةً الذي باحت به أَلْسِنَةُ ضحايا تلك الظاهرة، والنظرَ إليها على أنها ظاهرة نابية، خارقة للمألوف، مجافية للمنشود، لا يخلو من دلالة على متانة وشيجة الدم والرحم، وإباء ما يوهي حبلها واستنكاره، وهي متانة طبيعية في المجتمعات القبلية في كل آنٍ ومكان. وهي إذ تخفُّ فلا تعدو موادة الأقربين وبرهم والتواصل العاطفي معهم فإنها تلتقي مع المفهوم الإسلامي لـ «صلة الرحم.»

وأخيرًا لعل من الملائم هنا التذكير بأن الإبداع الفنيَّ وحده ليس بسبيلٍ مأمونة العثار للوصول إلى حقيقة الأمر بمعزل عن الروافد العلمية و(الثقافية) الأُخَر، وخاصة علمي التاريخ والاجتماع، بل حسب دارسه أن يظفر منه بإيحاءاتٍ ومؤشراتٍ ذاتِ دلالات تتفاوت في درجة دُنُوِّها من التصوير الواقعي ونأيها عنه.

٣ ـ كانت عناصر التقاء النظرتين القديمة السابقة للإسلام والجديدة التي سادت بعده إلى العلاقة بابن/ بني العم،ومعالجة مختلف جوانب هذه القضية،أكثر من عناصر افتراقهما، أو بعبارة أخرى، كان اختلافهما هو الاستثناءَ لا القاعدة، ولعل ذلك عائد إلى ما يلي:

(ا) ميل كثير من عرب ما قبل الإسلام، كما ذكرنا، إلى التعاطف مع أقربيهم تعاطفًا معتدلاً لا يتعارض مع مفهوم (صلة الرحم)، وهو مفهوم إسلاميٌّ، وإن كانت الحمية الجاهلية المضادة له فاشيةً لدى عرب الجاهلية أيضًا.

(ب) بقاء بعض الرواسب غير الإسلامية في نفوس بعض العرب بعد الإسلام، وعودة الشعور القبليّ والعشائريّ إليهم (في العصر الأموي خاصة).

(جـ) وَحْدَة التجربة التي يمر بها المتعاملون مع بني عمهم ولاسيما ضحايا «العداء.»

---

(٩٧) الميداني، *مجمع الأمثال*، جـ١، ص٦٥. الأوقاب: الحمقى.

(د) محاكاة بعض الشعراء الإسلاميين لسابقيهم من شعراء الجاهلية ممن طرقوا المضامين عَيْنَهَا جريًا على عادتهم في السير على سَنَنِهِمْ في شتى مسائل القصيد مَبْنًى ومعنى .

The Status of the Cousin among the Arabs in the Light of Ancient Poetry (until the End of the Umayyad Period)

Muhammad S. al-Sudais
Professor, Department of Arabic, College of Arts,
King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. This paper is a survey of ancient Arabic poetry from pre-Islamic times to the end of the Umayyad period. Its aim is to shed light upon common concepts, attitudes and practices pertaining to the relationship between an Arab and his cousins (on the father's side). The works examined give the impression that a cousin enjoyed a respected position in old tribal Arab society. Sympathy, support, and loyalty towards a cousin are expressed in many texts. *Jāhilī* texts express special attitudes towards *ibn al ʿamm*, which Islam emphasizes afterwards under the more rational concept of *ṣilat ar-raḥim*. It is not, therefore, surprising that such pre-Islamic custom is condoned by Islam. On the other hand, Islam disapproves of *ʿaṣabiyya* upon which relationships among members of a tribe are built in the *jāhiliyya*. At the same time, negative attitudes taken by men against their cousins are echoed in poetry. Attitudes such as hatred, jealousies, etc., are reflected in the bitter and painful poetry expressed by poets.